بـــداية النهـــاية
"نصوص ادبيه"
أفنـــان الحبابـــي

بـدايـــةُ النِّهـايـــة

"نصوصٌ أدبيّة"

أفنـان الحبـابي

عنوان الكتاب: بـدايـة النهايـة

تأليف: أفنـان الحبـابي
نوع الكتاب: نصـوص أدبيـة
المطبعـة: شيمـاء بوك

تم تقييـد المعاملة في سجل الوارد برقـم (٣٥٩) وتاريخ
١٤٤٧/٣/١١ للهجرة الموافق ٢٠٢٥/٩/٢
وقد مُنـح الكتاب رقم إيـداع (٣٥٩) للسنـة ١٤٤٧---٢٠٢٥

جميـع الحقوق محفوظه لـدى الناشر لا يسمح بإعادة إصـدار هذا الكتاب أو جـزء منـه بهـدف إهدار حقوق الملكية الفكـرية دون إذن مسبق من الكاتـب

إهداء:

إلى الأرواحِ التي أنهكَها الطريقُ
حتّى نسيت ملامحَ بداياتِها...
إلى العيونِ التي ضاقَ أفقُها
حتّى صارت ترى العالَمَ من ثُقبِ إبرة...
إلى القلوبِ التي تعثَّرت
حتّى أثقَلَها الألمُ، وكأنَّها تجرُّ خلفَها جبالًا من صمت...
إلى مَن فقَدوا ألوانَهم الداخليَّة،
وظنُّوا أنَّ النهاياتِ قَدَرٌ لا فِكاكَ منه...

أُهديكَ هذا الكتاب...
ليس لأنَّه سيُغيِّر حياتَكَ بصفحةٍ،
بل لأنَّه سيُذكِّرُكَ أنَّكَ كنتَ يومًا أكبرَ من حُزنِكَ،
وأوسعَ من جُرحِكَ.

هُنا، بين السطورِ، ستجدُكَ كما لم تجِدْكَ من قبل:
جُرحًا يتعلَّم أن يكونَ جَناحًا،
وسقوطًا يكتشفُ أنَّه كان بدايةَ التَّحلِيق.
هذه ليست حكاياتٍ لتقرَأها، بل مرايا لتراكَ...

فإن وجدتَ نفسَكَ هنا،
فاعلَم أنَّ الضَّوءَ لم يمُت
وأنَّ الظَّلامَ لم يكن إلَّا غيابًا مؤقَّتًا للفجر.

افتتاحيَّة

ليست الحياةُ خطًّا مستقيمًا نمشيهِ،
بل متاهةً تتبدَّل جدرانُها كلَّما تقدَّمنا خطوةً.
أحيانًا نجِدُ أنفسَنا في طُرقٍ لا نعرف كيف دخَلناها، ونقفُ عند أبوابٍ لا نملِك مفاتيحَها،
ونحمِلُ على أكتافِنا أثقالًا لم نخترْها.

لكنَّنا نُواصِلُ السَّير... لا لأنَّنا نعرِف الوجهةَ،
بل لأنَّ في داخلِنا صوتًا خافتًا يَهمِس:
"هُناك ما يَستحقُّ الوصولَ إليه."

هذا الكتابُ ليس نصائحَ محفوظةً،
ولا حِكمًا مُنمَّقة...
إنَّه قِطعٌ من الطريق،
ومفاتيحُ وجدتُها بعد أن أضَعتُ كثيرًا من الأبواب، وشظايا من الرُّوح جمعَها الزَّمنُ ببطء.

ستجدُ فيه وجوهًا تُشبهُك،
وأصواتًا سمِعتَها في داخِلِكَ،
ولحظاتٍ ظننْتَ أنَّكَ وحدَكَ مَن عاشَها.
رُبَّما ستقرَأ هنا ما يُوجِعُك، ورُبَّما ما يُوقِظُك...
لكنَّني أرجو أن تخرُج من بين صفحاتِه
وأنتَ أكثرَ صِدقًا مع نفسِك،
وأقرَبَ إلى النُّورِ الذي كنتَ تَبحث عنه دون أن تَدرِي.

ومن هنا... تبدأُ بدايةُ النِّهاية.

مُقـدِمّة

هناكَ لَحَظاتٌ في الحَياةِ لا تُقاسُ بالزَّمَنِ،
بَل تُقاسُ بِما تَترُكُهُ في أَرواحِنا مِن أَثَرٍ.

ولعلَّ الكِتابةَ واحِدةٌ مِن تِلكَ اللَّحَظاتِ
الَّتي تَفتَحُ أَبوابَ القَلبِ على مِصراعَيهِ،
فَتَنسابُ مِنها الكَلِماتُ كالماءِ،
لا تَعرِفُ غيرَ الصِّدقِ طَريقاً،
ولا تُتقِنُ غيرَ العَطاءِ لُغَةً.

هذا الكِتابُ لَيسَ صَفَحاتٍ
مِن حِبرٍ وَوَرَقٍ فَحَسْبُ،

بَل هُوَ بَوحُ روحٍ، وامتِدادُ قَلبٍ،
ورِسالةُ إنسانٍ آمَنَ أنَّ لِلكَلِمَةِ جَناحَينِ،
وأنَّها قادِرَةٌ على أن تَحلِّقَ عالِياً
حتّى تَمَسَّ سَماءَ القُلوبِ.

نُبـذّه تعريّفيّة عن الكَاتِـب

لَستُ سِوى عاشِقٍ لِلحَرفِ،
أَسيرٍ بَينَ دَفَّتَيِ الكُتُبِ مُنذُ نُعومَةِ أَظفاري.
وَجَدتُ في القِراءةِ بَحراً لا ساحِلَ لَهُ،
أَغوصُ في أَعماقِهِ فَأَرتَقِي، وأَتَبَدَّلُ،
وأُبصِرُ ما لَم أَكُن أَراهُ.

وَرَأيتُ في الكِتابةِ شِريانَ حَياةٍ،
ومَلاذَ روحٍ، وَدَواءً لِكُلِّ وَجَعٍ،
وَصَوتاً يَحِقُّ لَهُ أَن يَبلُغَ الآفاقَ.

لَم أَكُن يَوماً عالِماً يُشارُ إِلَيهِ،
وَلا مُفَكِّراً يُخَلِّفُ بَصمَةً نَظَرِيَّةً،
وَلَم أَحمِل بَراءةَ اختِراعٍ تُذكَرُ،

لَكِنَّنِي أُوقِنُ أَنَّ الإنسانَ ما هُوَ إِلّا أَثَرٌ وذِكرى،
وَأَنَّ البَقاءَ الحَقيقِيَّ إِنَّما يَكونُ بِحُسنِ العَمَلِ،
وَجَمالِ الخُلُقِ،
وَالمَعروفِ الَّذي يَزرَعُهُ في قُلوبِ مَن حَولَهُ،
وَبِجَبرِ الخَواطِرِ وَلَو بِكَلِمَةٍ،
أَو بِإِصغاءٍ صادِقٍ لِروحٍ أَنهَكها الصَّمتُ.

لَستُ مُتَفَقِّهاً في الدِّينِ،

غَيرَ أنَّنِي أَعلَمُ يَقيناً أنَّ اللهَ لا يَنصِتُ لِزُخرُفِ الألفاظِ، بَل يَنظُرُ إلى ما تُخفيهِ الصُّدورُ،
وَإلى صِدقِ التَّوجُّهِ إلَيهِ حينَ نُناجِيهِ.
فَدِينُنا دِينُ سَلامٍ وَمَحَبَّةٍ وَرَحمَةٍ،
وَلا دِينَ يَعلو على دِينِ المُعامَلَةِ.

وَلَستُ مُثقَّفاً حَتّى القِمَمِ،
وَلا خَبِيراً في فُنونِ العَلاقاتِ،
لَكِنَّنِي أَعلَمُ أنَّهُ لا رابِطَةَ تَسمُو
فَوقَ رابِطَةِ العائِلَةِ؛
فَهِيَ الحُضنُ الَّذي لا يُغلَقُ،
وَالظِّلُّ الَّذي لا يَزولُ،
وَالمَلاذُ الَّذي نَلوذُ بِهِ حينَ تَشتَدُّ العَواصِفُ.
فالأَبُ أَمانٌ، وَالأُمُّ جَنَّةٌ، وَالأُخوَةُ سَنَدٌ لا يَميلُ،
وَالأَخَواتُ بَحرُ حَنانٍ لا يَجِفُّ.

أَمَّا في السِّياسةِ، فَلَستُ مِن أَهلِها،
لَكِنَّنِي أُؤمِنُ أنَّ العَدلَ هُوَ بَوابَةُ القُلوبِ،
وَأنَّ الصِّدقَ هُوَ جِسرُ الثِّقَةِ،
وَأنَّهُ لا قِيامَ لِرَعِيَّةٍ إذا كانَ راعِيها غارِقاً في الفَوضى.

وأَخيراً، لَستُ كاتِباً مَشهُوراً،
وَلا اِسمًا لامِعاً، غَيرَ أَنَّنِي لا أَعتَرِفُ بِكَلِمَةِ «مُستَحيلٍ» ما دامَ في القَلبِ إصرارٌ،
وَفي الرُّوحِ عَزيمَةٌ، وَفي اليَدِ عَمَلٌ.

وَها أَنا اليَومَ

أَضعُ بَينَ أَيدِيكُم سُطوراً مِن كِتابٍ
كانَ حُلماً يُراوِدُنِي أَعواماً طِوالاً،
وَحُلماً كادَ أَن يَظَلَّ أَسيراً
لَولا أَن وَهَبَنِي اللهُ الصَّبرَ وَالقُدرَةَ
على إِخراجِهِ لِلنُّورِ.
فَما أَعظَمَ أَثَرَ القَلَمِ،
إِذ يَسبِقُ الرَّصاصَةَ إِلى القُلوبِ وَالعُقولِ.

الحَمدُ للهِ الَّذي ما تَمَّ أَمرٌ إِلّا بِفَضلِهِ.
إِن قَصَّرتُ فَمِن نَفسِي،
وَإِن أَصبَتُ فَمِنهُ وَحدَهُ.

وَإِن كانَ في هذا العَمَلِ ما يُغَيِّرُ
فِكرَ إِنسانٍ واحِدٍ،
فَذلِكَ – وَاللهِ – أَعظَمُ مِمّا رَجَوتُ.

وَاللهُ وَلِيُّ التَّوفيقِ.

بدايةُ النهايةِ...

كم ليلةً حالكةَ السوادِ مرّتْ بك،
بلّلتَ فيها وسادتَك بدموعِك،
وعِشتَ خلالها شعورًا خانقًا
حتى تمنّيتَ الخلاصَ بأيّ طريقةٍ.

كم مرّةً انزويتَ بعيدًا،
تستسلمُ للحزنِ،
تلعنُ حظَّك وتُعاتبُ الزمنَ.
وكم مرّةً ظننتَ أنّها النهايةُ الحقيقيّةُ...
نهايةُ الحياةِ، نهايةُ الأحلامِ، نهايةُ السعادةِ.

لكن، برحمةِ اللهِ، يتجلّى لك نورٌ في آخرِ النفقِ،
وتتكشّفُ لك خفايا القدرِ شيئًا فشيئًا،
فتُدركُ أن ما ظننْتَه نهايةً،
كان في الحقيقةِ بدايةً جديدةً.

يا رفاقُ...
اعتدْنا أن نقولَ: "لكلّ بدايةٍ نهايةٌ"،
لكنّنا لم نتأمّلْ أن لكلّ نهايةٍ بدايةً أيضًا.

نهايةُ الصبرِ... تعني فرَجًا يمحو مرارةَ ما مضى.
نهايةُ الألمِ... تعني فرحًا يُرمّم ما انكسر داخلك.
نهايةُ الخوفِ... تعني بدايةَ سلامٍ وطمأنينةٍ.

ونهايةُ كلِّ شيءٍ... تعني ميلادَ شيءٍ أجملَ.

في قلبِ كلِّ ظلمةٍ وميضُ نورٍ،
فَتِّشْ عنه،
تلمّسْه في أعماقِ روحِك،
وكُنْ على يقينٍ أن كلَّ نهايةٍ أوجعتْك،
إنّما كانت تمهيدًا لبدايةٍ ستبهجُك.

ووالله... ما وعدَنا اللهُ بـ "إنّ مع العُسرِ يُسرًا" عبثًا.

لَسْنَا مَلَائِكَةً

يَا رِفَاقَ الرُّوحِ، لَسْنَا كَائِنَاتٍ مِنْ نُورٍ،
وَلَسْنَا أَنْقِيَاءَ كَالـثَّلْجِ الْهَابِطِ مِنْ سَمَاءِ الشِّتَاءِ...
نَحْنُ بَشَرٌ،
وَلِلْبَشَرِ مَلَامِحُ النَّقْصِ، وَجِرَاحُ التَّجْرِبَةِ،
وَخُطُوطُ الْخَيْبَةِ عَلَى جِبَاهِهِمْ.

لِمَاذَا تُسْرِفُونَ فِي جَلْدِ ذَوَاتِكُمْ عِنْدَ أَوَّلِ سَقْطَةٍ؟
وَمَنْ الَّذِي أَقْنَعَكُمْ أَنَّ الْخَطَأَ عَارٌ لَا يُغْتَفَرُ؟
مَنْ قَالَ إِنَّ الصَّوَابَ قَدَرٌ لَا نَحِيدُ عَنْهُ؟
الْحَيَاةُ لَمْ تُخْلَقْ لِتَكُونَ مُدَرَّجًا مُسْتَقِيمًا،
بَلْ مَتَاهَةً لَا نَبْلُغُ مُخْرَجَهَا إِلَّا إِذَا تِهْنَا فِيهَا،
وَضَيَّعْنَا الطَّرِيقَ مِرَارًا.

نَحْنُ نُخْطِئُ لِنَرَى الْحَقِيقَةَ،
وَنَسْقُطُ لِنَتَعَلَّمَ الْوُقُوفَ،
وَنَنْزِفُ لِنَكْتَشِفَ قِيمَةَ الشِّفَاءِ.

لَكِنْ، مَا يُؤْلِمُنِي حَقًّا،
أَنْ نَرَى الْمُخْطِئَ فَنَرْفَعَ أَصَابِعَ الِاتِّهَامِ
قَبْلَ أَنْ نَمُدَّ لَهُ يَدَ الْعَوْنِ...
أَنْ نَرْتَدِيَ قِنَاعَ الطَّهَارَةِ،
وَنُخْفِيَ تَحْتَهُ أَخْطَاءً لَا يَعْلَمُ بِهَا سِوَانَا.
أَكْرَهُ الْخَطَأَ... نَعَمْ،
وَلَكِنَّنِي أَكْرَهُ أَكْثَرَ مَنْ يَقْتُلُ الْمُخْطِئَ بِنَظْرَةِ اسْتِعْلَاءٍ.

رِفْقًا بأنفسكم فكل طَرِيقٍ جَدِيدٍ
يَحْمِلُ فِي بَدَايَتِهِ عَثَرَاتٍ لَا مَفَرَّ مِنْهَا،
وَلَا عَيْبَ فِي أَنْ تَتَعَثَّرُوا...
الْعَيْبُ أَنْ تُدْرِكُوا الْحُفْرَةَ
ثُمَّ تَقْفِزُوا إِلَيْهَا عَنْ عَمْدٍ.
وَحِينَ يَحْدُثُ ذَلِكَ،
لَا مَفَرَّ مِنْ أَنْ تَتَغَطَّوْا بِرِدَاءِ النَّدَمِ،
عَلَّهُ يُدْفِئُ أَرْوَاحَكُمْ.

يَا رِفَاقَ،
كُونُوا فَخُورِينَ بِتِلْكَ الْأَخْطَاءِ
الَّتِي أَوْصَلَتْكُمْ إِلَى الْحَقِّ،
فَالْأَخْطَاءُ لَيْسَتْ نِهَايَةَ الرِّحْلَةِ،
بَلْ هِيَ جِسْرٌ تَعْبُرُونَ عَلَيْهِ نَحْوَ النُّورِ.
وَلَا تُعَاقِبُوا أَنْفُسَكُمْ حِينَ تُخْطِئُونَ،
بَلْ حِينَ تُصِرُّونَ عَلَى الْخَطَأِ.

فَبِمُجَرَّدِ أَنْ تُدْرِكُوا زَلَّتَكُمْ،
تَكُونُونَ قَدْ بَدَأْتُمْ أُولَى خُطُوَاتِكُمْ نَحْوَ الصَّوَابِ.

مَرافئ النَوُر فِيَ بحرِ العُتمَـة

مَرحَباً يا رِفاقُ... ثُمَّ أَمّا بَعدُ،
لا تُعَلِّقوا قُلوبَكُم عَلى أَبوابِ الغَيرِ تَنتَظِرونَ
عَطفَ يَدٍ تَمتَدُّ،
فالأَبوابُ قَد تُغلَقُ،
واليَدُ قَد تُسحَبُ،
وَالرَّجاءُ إذا طالَت مُدَّتُهُ صارَ وَهماً يَفتِكُ بِالرُّوحِ.

لا تَسجُنوا أَنفُسَكُم في قَفَصِ الحُزنِ،
فالحُزنُ إن طالَ
تَحوَّلَ إلى مَقبَرَةٍ صامِتَةٍ
تَدفِنُ فيها الحَياةُ حَيَّةً.

خُذوا نَفَساً عَميقاً،
كَأَنَّكُم تَستَنشِقونَ الفَجرَ بَعدَ لَيلٍ طَويلٍ،
اِرتِوا عَلى أَكتافِكُم بِيَدِ اليَقينِ،
وَشُدّوا أَزرَ أَرواحِكُم كَمَن يَربِطُ جِراحَهُ بِثَوبِ العَزيمَةِ، ثُمَّ انهَضوا،

انهَضوا كَما يَنهَضُ المُحارِبُ
مِن تَحتِ رُكامِ المَعرَكَةِ، يُزيلُ الغُبارَ عَن مَلامِحِهِ،
وَيَبتَسِمُ ابتِسامَةَ النَّصرِ
حَتّى قَبلَ أَن يَخوضَ جَولَةً أُخرى.

يا رِفاقُ...
وَاللهِ، مَن لَم يُقَرِّر أَن يَكونَ سَفينَةَ خَلاصِهِ،

فَلَن يُبحِرَ بِهِ أَيُّ مَرفَإٍ،
وَمَن لَم يُشعِل لِنَفسِهِ شَمعَةً في قَلبِ العَتمَةِ،
فَلَن تُنيرَهُ كُلُّ شُموسِ الكَونِ.
إِنَّ الرُّوحَ الَّتي لا تُنقِذُ نَفسَها تَغرَقُ،
وَلَوِ اجتَمَعَتِ الأَرضُ كُلُّها لِانتِشالِها.

كونوا أَنتُمُ النُّورَ لأَنفُسِكُم،
وَالسَّندَ لِقُلوبِكُم،
وَالقَصيدَةَ الَّتي تَكتُبُها الحَياةُ في لَحظَةِ تَحَدٍّ.
فالحَياةُ لا تَميلُ لِلضُّعَفاءِ،
بَل تَنحَني فَقَط لِمَن قاومَ العاصِفَةَ
وَهُوَ مَكسوٌّ بِالصَّبرِ،
وَخَرَجَ مِنها أَكثَرَ إِشراقاً
مِن شَمسٍ لَم تَعرِفِ الغُروبَ.

مَا بَعْدَ السُّقُوطِ

كَأَنَّ الرُّوحَ حِينَ تَنْكَسِرُ،
تُبْعَثُ مِنْ رَمَادِهَا مِنْ جَدِيدٍ.
يَسْقُطُ الْمَرْءُ أَحْيَانًا فِي هُوَّةٍ مُظْلِمَةٍ،
يَتَشَقَّقُ دَاخِلُهُ كَزُجَاجٍ هَشٍّ،
فَيَظُنُّ أَنَّ النُّورَ قَدْ هَجَرَهُ إِلَى الْأَبَدِ،
وَأَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ.

لَكِنْ بَيْنَ الشُّقُوقِ الصَّغِيرَةِ يَتَسَلَّلُ الضَّوْءُ،
يَكْشِفُ أَنَّ الْكُسُورَ لَيْسَتْ نِهَايَةً،
بَلْ مَمَرَّاتٍ سِرِّيَّةً نَحْوَ وِلَادَةٍ أُخْرَى.
وَأَنَّ النِّهَايَةَ الَّتِي ظَنَنَّهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى بَدَايَةً لَمْ يَتَخَيَّلْ يَوْمًا أَنْ تَبْدَأَ مِنْ عُمْقِ النِّهَايَةِ.

النُّهُوضُ لَيْسَ إِنْكَارًا لِلْجُرْحِ،
بَلِ اعْتِرَافٌ بِهِ وَتَعَلُّمٌ مِنْ أَلَمِهِ.
هُوَ قُدْرَةٌ عَلَى جَمْعِ الْقِطَعِ الْمُبَعْثَرَةِ،
وَإِعَادَةِ تَرْتِيبِهَا بِشَكْلٍ أَجْمَلَ وَأَقْوَى.
فَالَّذِي ذَاقَ مَرَارَةَ السُّقُوطِ،
يَعْرِفُ كَيْفَ يُقَدِّرُ طَعْمَ النُّهُوضِ،
وَكَيْفَ يَمْشِي بِثَبَاتٍ
عَلَى طَرِيقٍ لَمْ يَعُدْ يُخِيفُهُ الانكسار.

إِنَّنَا لَا نَنْهَضُ رَغْمَ جِرَاحِنَا،
بَلْ نَنْهَضُ بِهَا.

نَنْهَضُ لِأَنَّنَا خُلِقْنَا لِنُكْمِلَ الرِّحْلَةَ
مَهْمَا أَثْقَلَتْنَا الْأَحْجَارُ.
نَنْهَضُ لِأَنَّنَا مَا خُلِقْنَا لِنُهْزَمَ،
فَنَحْنُ مَنْ يُعْطِي الْحَيَاةَ قُوَّةً.

هٰذا الوقتُ سَيَمُرّ

كَم ضَاقَتْ بِنا الدُّنيا، فظَنَنَّاها آخِرَ المَطَافِ،
فإذا بِها لَم تَكُنْ إلّا بَدَايَةً لِوَاقِعٍ أَجمَلَ.

كَم لَيْلَةٍ غَشِينَا فِيهَا سَوادُ اليَأْسِ وَقُلنا:
لَنْ يُسْفِرَ صُبْحُها،
فإذا بِشَمسٍ مُتَفَتِّحَةٍ بِالأمَلِ تُزْهِرُ فِي أُفُقِنَا.

وَكَم صَدِيقٍ خَذَلَنَا،
فَأَوْقَنَّا أَنَّ القَلْبَ لَنْ يَفْتَحَ أَبْوَابَهُ مِنْ جَدِيدٍ،
فإذا بِالأَوْفَى وَالأَصدَقِ يَدْخُلُ عَالَمَنَا،
فَنُدْرِكُ أَنَّ مَا خَسِرْنَاهُ
لَمْ يَكُنْ إلَّا مَطَرِحًا لِنِعْمَةٍ أَعْظَمَ.

يَا رِفَاقُ...
كَم مَرَرْتُم بِلَحَظَاتٍ قَاسِيَةٍ وَمُرَّةٍ،
وَقُلْتُم: «لَنْ تَنْقَضِي»،
فإذا هِيَ اليَومَ سِوَى ذِكْرَى
تُحَدِّثُكُمْ أَنَّكُم قَدْ تَعَلَّمْتُم وَقَوِيتُم.

مَهْمَا أَحَاطَ بِكَ اليَأْسُ
وَأَثْقَلَتْكَ الأَوجَاعُ وَالآلامُ،
وَمَهْمَا بَلَغَتْ خَسَارَاتُكَ،
صَدِّقْنِي: إنَّهُ وَقْتٌ عَابِرٌ، وَسَيَمْضِي.

تَذَكَّرْ هٰذَا جَيِّدًا:
لَا شَيْءَ يَدُومُ فِي هٰذِهِ الحَيَاةِ،
كُلُّ شَيْءٍ فَانٍ، وَكُلُّ حَالٍ يَتَغَيَّرُ.

وَلٰكِنْ... تَأَكَّدْ أَنَّكَ أَنْتَ صَاحِبُ القَرَارِ.
هَلْ سَتَبْقَى أَسِيرًا لِظِلَالِكَ؟
هَلْ سَتَدَعُ الظَّلَامَ يَطْمِسُ نُورَكَ؟
هَلْ سَتَرْفَعُ الرَّايَةَ البَيْضَاءَ
وَتَبْقَى حَبِيسَ فِرَاشِكَ
تُنَادِبُ الحَظَّ وَتُلَائِمُ الدَّهْرَ؟

لَا، يَا رفاق...
إِنَّ حَيَاتَكَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ.
أَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ يَمْلِكُ الإِجَابَةَ،
وَأَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى التَّغْيِيرِ.
وَإِنْ لَمْ تَمُدَّ يَدَكَ لِنَفْسِكَ،
فَلَنْ يَمُدَّهَا أَحَدٌ عَنْكَ.

خِتَامًا يَا رِفَاقُ...
هٰذا الوَقتُ سَيَمْضِي،
فَلَا تَدَعُوهُ يَمْضِي عَبَثًا،
بَلْ اجْعَلُوا مِنهُ دَرْسًا وَذِكْرَى.
فَإِنْ لَمْ تَتَعَلَّمُوا اليَومَ،
فَتَوَقَّعُوا وَقْتًا آخَرَ قَادِمًا...
وَلَعَلَّهُ لَنْ يَمْضِي كَمَا تَمَنَّيْتُم.

القَرَارُ بِيَدِكُمْ.

كَذَبوا عَلَيْنا

كَذَبوا عَلَيْنا حينَ قالوا:
إنَّ العَرَبَ إخْوَةٌ.
ها نَحْنُ ذا نَرَى غَزَّةَ غارقَةً في دِمائِها،
صَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتٍ لَها: وامُعْتَصِماه!
وَلَكِنْ ما حَرَّكَ نِداءُها ضَميرَهُم؛
لا نَخْوَةَ العَرَبِ فيهِم،
وَلا مروءَةَ الجاهِلِيَّةِ.

حينَ قالوا: إنَّ العَرَبَ إخْوَةٌ،
لَمْ يُخْبِرونا أَنَّ غَزَّةَ هِيَ يُوسُفُ،
وَأَنَّ العَرَبَ هُم إخْوَتُهُ؛
تَرَكُوها في غِيابَةِ الجُبِّ،
تُنازِعُ القَتْلَ، وَالنُّزوحَ، وَالتَّشْريدَ، وَالجُوعَ،
وَإخْوَتُها العَرَبُ جاءوا لأَنْفُسِهِم بِأَعْذارٍ واهِيَةٍ،
فاضِحَةٍ، خادشه لِلمُروءَةِ وَالإنْسانيَّةِ،
لِيُقْنِعوا بِها ضَمائِرَهُم.
وَها هُمُ اليَوْمَ في صَمْتٍ مُريبٍ،
وَنَوْمٍ عَميقٍ.

يا رِفاقُ،
لَيْسَ كُلُّ ما كَبُرْنا عَلَيْهِ حَقيقَةً؛
فَمُعْظَمُ ما نَعْتَقِدُهُ مَعْلوماتٌ مَغْلوطَةٌ.
مِنَ الجَميلِ أَنْ نَتَمَسَّكَ بِمُعْتَقَداتِنا،
وَبِمَبادِئِنا، وَبِثَقافَتِنا،

وَلَكِنْ مِنَ العارِ وَالمَعيبِ..
أَنْ نَتَمَسَّكَ بِها دُونَ أَنْ نَكُونَ مُدْرِكِينَ
أَوْ مُسْتَوْعِبِينَ لِصِحَّةِ وَسَلامَةِ ما تَمَسَّكْنا بِهِ.

أُنْظُروا لِلأُمورِ نَظْرَةً ثاقِبَةً،
وَتَأَمَّلوا تِلْكَ العِباراتِ الَّتي كَبُرْنا وَنَحْنُ نُرَدِّدُها...

فَكَمْ قُلْنا: لِسانُ الضّادِ يَجْمَعُنا!
وَكَمْ رَدَّدْنا: بِلادُ العَرَبِ أَوْطاني!

فَما وَجَدْنا الضّادَ جَمَعَنا،
وَما كانَتْ بِلادُ العَرَبِ سِوَى أَوْجاعي وَخِذْلاني.

خِتامًا، يا رِفاقُ...
كَذَبوا عَلَيْنا وَقالوا: إِنَّ لِكُلِّ بِدايَةٍ نِهايَةً.
وَها نَحْنُ كَبُرْنا وَوَعَيْنا
أَنَّ كُلَّ نِهايَةٍ ما هِيَ سِوَى نُقْطَةِ بِدايَةٍ،
حَتّى نِهايَةَ حَياتِنا..
لَيْسَتْ سِوَى بِدايَةٍ لِلْحَياةِ الحَقيقِيَّةِ.

حين يَحلُمُ الجِناحَ ينكَسِرُ الجِدار

لَعَلَّ أَقسى مَا يُواجِهُهُ الإنسانُ
هُوَ ذلِكَ الوَاقِعُ العَنِيدُ
الَّذي يَقفُ نِقيضًا لِأَحلامِهِ وطُمُوحَاتِهِ،
ذلِكَ الوَاقِعُ الَّذي يَنسُجُ القُيُودَ لِكُلِّ مَن حَلِمَ بِالطَّيَرَان،
وَيَزرَعُ الأَسوَارَ فِي وَجهِ كُلِّ خُطوَةٍ نَحوَ الحُرّيَة.

إِنَّ أَصعَبَ مَا يُمكِنُ أَن يَمُرَّ بِهِ المَرءُ
هُوَ صِراعُهُ لِلحِفاظِ عَلَى حُلمِهِ،
مُتشَبِّثًا بِإِيمَانِهِ بِقُدرَتِهِ عَلَى التَّحليق
فَوقَ جِدَارَاتِ الخَيبَة،
فِي عَالَمٍ لا يُتقِنُ سِوَى فَرضِ الهَزَائِمِ
وَتَشكِيلِ الحُدُودِ.

يَا رِفَاق،
فِي أَعماقِ كُلِّ رُوحٍ حُلمٌ مَكظُوم،
نَخبِئُهُ كَأَنَّهُ جَوهَرَةٌ سِرِّيَّة،
نُهرِبُهُ عَن أَعيُنِ المَجتَمَع،
لِأَنَّنَا نَعلَمُ أَنَّهُ مَا إِن نُفصِحَ بِهِ
حَتَّى تَتحَوَّلَ أَلسِنَةُ النَّاسِ إِلَى
سِهَامٍ مُسَمَّمَةٍ تُصِيبُنا بِسُخرِيَةٍ
وَازدرَاءٍ وَمُقَارنَاتٍ لَا تَنتهِي.

فَإِلَى مَتَى سَنَظَلُّ نَدفِنُ أَحلامَنَا كَأَنَّهَا خَطيئَة؟
إِلَى مَتَى سَنُطفِئُ شَغَفَنَا وَنَوأدُ هَوَايَاتِنَا

مَخَافَةَ أَلسِنَةٍ لَا تُتقِنُ سِوَى التَّقزِيمِ وَالتَّقليل؟

إِنَّنَا قَادِرُونَ عَلَى تَغييرِ أَنفُسِنَا وَفِكرِنَا،
حَتَّى إِن لَم نَستَطِع تَغييرَ مَن حَولَنَا.
وَمَا أَجمَلَ أَن نَعيشَ تَحتَ شِعَار:
"لَا أَرَى، لَا أَسمَع."

ثِقُوا يَا رِفَاق،
أَنَّكُم مَتَى سَعَيتُم بِقُلوبٍ مُلتَهِبَةٍ بِالشَّغَف،
وَعُقُولٍ مُمتَلِئَةٍ بِالتَّخطيطِ وَالرُّؤى،
فَستَصِلُونَ، وَاللهِ لَتَصِلُنَّ.
وَيَومَ تَبلُغُونَ ذُرَى أَحلَامِكُم،
سَيَكُونُ أَوَّلُ مَن يُصفِّقُ لَكُم
هُوَ ذَاكَ الَّذي سَخِرَ مِنكُم يَومًا.

فَلَا تَتَخَلَّوا عَن أَحلَامِكُم،
وَلَا تَترُكُوهَا تَذُوبُ عَلَى أَطرافِ الطَّرِيق،
بَل تَمَسَّكُوا بِهَا حَتَّى يَأتِيَ اليَومُ الَّذي تَقِفُونَ فِيهِ
أَمَامَ السَّاخِرِينَ وَتَقُولُونَ: "هَا قَد فَعَلتُهَا!"

وَأَصدَقُ مَا قِيلَ يَومًا:
"قَاتِل لأَجلِ حُلمِكَ،
فَإِن وَصَلتَ إِلَى نِهَايَتِهِ مُتعَبًا مُمَزَّقًا،
فَلَذَّةُ الوُصُولِ كَفِيلَةٌ بِأَن تَرمِّمَكَ."
نَعَم،
لَذَّةُ الوُصُولِ
هِيَ البَلسمُ الَّذي يَضمُدُ جِرَاحَ الطَّرِيق.

أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا

لَيْسَ أَنْ تَتَبَاهَى بِعَضَلَاتِكَ،
أَوْ تَتَّكِئَ عَلَى مَالِكَ،
أَوْ تَتِيهَ بِنَسَبِكَ وَشُهْرَتِكَ،
فَكُلُّ هَذِهِ مَظَاهِرُ زَائِلَةٌ، هَشَّةٌ،
تَسْتَمِدُّ قِيمَتَهَا مِمَّا تَمْلِكُ، لَا مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ.

اَلْقُوَّةُ اَلْحَقِيقِيَّةُ تَسْكُنُ قَلْبَكَ،

حِينَ تَقِفُ أَمَامَ مَخَاوِفِكَ بِثَبَاتٍ،
وَاثِقًا أَنَّ اللهَ لَنْ يَتْرُكَ أَمَانِيَّكَ
تَتَسَاقَطُ فِي اَلرِّيَاحِ،
حِينَ تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ كُلَّ صَبَاحٍ،
رَغْمَ لَيْلٍ كَانَ يَقْطُرُ وَجَعًا،
وَتُهْمِسُ لِنَفْسِكَ بِأَنَّ اَلْقَادِمَ أَجْمَلُ،
وَأَنَّ اَلْعِوَضَ سَيَكُونُ بِحَجْمِ اَلْمُعْجِزَةِ.

أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا،
هُوَ أَنْ تَنْهَضَ بَعْدَ كُلِّ سُقُوطٍ
بِلَا انْتِظَارٍ لِيَدٍ تَنْتَشِلُكَ،
أَنْ تَمْسَحَ عَنْ قَلْبِكَ غُبَارَ اَلِانْكِسَارِ،
وَتُكْمِلَ اَلْمَسِيرَ نَحْوَ حُلْمِكَ،
وَاضِعًا ثِقَتَكَ بِكَرَمِ اللهِ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ.

اَلْقُوَّةُ، حِينَ تَنْبُعُ مِنْ دَاخِلِكَ،

تُعَلِّمُكَ أَنْ تَقُولَ: «لَا» لِكُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَ،
أَنْ تُوَقِّفَ مَنْ يَتَجَاوَزُ حُدُودَهُ،
أَنْ تُغْلِقَ اَلْبَابَ فِي وَجْهِ كُلِّ عَلَاقَةٍ مَسْمُومَةٍ.

وَتَبْلُغُ ذِرْوَةَ قُوَّتِكَ،
حِينَ يَتَحَوَّلُ أَلَمُكَ إِلَى وَقُودٍ
يُشْعِلُ فِيكَ أَجْمَلَ نُسْخَةٍ مِنْكَ،
وَحِينَ تَرُدُّ عَلَى اَلْخِذْلَانِ وَالْخِذْلَةِ،
لَا بِالْكَلِمَاتِ، بَلْ بِالْإِنْجَازَاتِ،

فَتُصْبِحَ كَالصَّخْرِ:
كُلَّمَا حَاوَلُوا كَسْرَكَ، تَكَسَّرُوا هُمْ،
وَبَقِيتَ أَنْتَ شَامِخًا، ثَابِتًا.

أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا..،
هُوَ أَنْ تَتَلَقَّى أَقْسَى اَلضَّرَبَاتِ،
ثُمَّ تَنْهَضَ بِابْتِسَامَةٍ
مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبَهُ صَارَ مُحَصَّنًا ضِدَّ كُلِّ أَلَمٍ.

اِعْرِفْ قَدْرَكَ

رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ،
فَارْتَقَى بِهَا عَنْ مَوَاطِنِ الْهَوَانِ،
وَلَمْ يَرْضَ أَبَدًا بِأَقَلَّ مِمَّا يَسْتَحِقُّ.

إِيَّاكَ أَنْ تُلَبِّيَ نِدَاءَ "نَعَمْ"
فِي مَجَالِسٍ يَكُونُ الرِّضَا فِيهَا ثَقِيلًا،
وَالْوُجُودُ فِيهَا لَا يَزِيدُكَ إِلَّا خُسْرَانًا.

يَا رِفَاقُ،
نَحْنُ لَسْنَا ظِلًّا يَمْتَدُّ فِي حَيَاةِ أَحَدٍ،
وَلَسْنَا جِسْرًا يُعْبَرُ عَلَيْنَا،
وَلَسْنَا صِفْرًا يُهْمَلُ فِي مَسَاحَاتِ الْعَدَدِ.

نَحْنُ نُقْطَةُ الْبَدْءِ،
وَنَحْنُ مِفْتَاحُ الْحِكَايَةِ،
وَمِنْ أَجْلِنَا صُنِعَ الْكَوْنُ
لِيَكُونَ مَسْرَحًا لِأَحْلَامِنَا.
فَلِمَاذَا نَرْضَى بِمَا لَا يَلِيقُ بِنَا؟

إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ السَّمَاحِ،
فَإِنَّهَا تُغْرِي الْقُلُوبَ الْجَافَّةَ
بِالِاسْتِرْخَاءِ عَلَى أَعْتَابِ طِيبَتِكَ.
وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ تَسَاهُلَكَ مَعَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ،
بَرِيدًا يَحْمِلُ رِسَالَةً خَفِيَّةً مَفَادُهَا:

"أَنَا مُسْتَعِدٌّ لِمَزِيدٍ مِنَ الْوَجَعِ."

وَتَذَكَّرْ دَائِمًا:
رَأْسُكَ خُلِقَ فِي الْأَعْلَى لِيُعَانِقَ السَّمَاءَ،
فَلَا تَنْحَنِي؛
فَإِنَّ الْمَجْدَ لَا يَسْكُنُ فِي الْمُنْحَنِينَ.

حين يَبتِسمُ الألم

حِينَ تَغشاكَ لَحظاتُ الانكِسارِ
وَتَثقُلُ الرُّوحُ بِأَوجاعِ الفَقدِ وَالأَلَم،
تَغدو العُيونُ عَمياءَ عَمّا بَقِي،
وَلا تُبصِرُ إلّا مَا انكَسَرَ وَتَحَطَّم.

يَخيَّلُ إلَيكَ أَنَّ ما تُعانِيهِ أبَدِيٌّ،
رُغمَ أَنَّكَ تَعلَمُ في أعماقِكَ أَنَّهُ لَيسَ أَوَّلَ مِحنَةٍ
وَلَن يَكونَ أَخِيرَها.
وَلكِنَّ الوَجعَ حِينَ يَستَبدُّ يَحجُبُ الرُّؤيا،
فَتَختَارُ الاستِسلامَ عَلَى المُحاوَلَة،
وَتَحكُمُ عَلَى نَفسِكَ بِالأَسر فِي قُيُودِ الوَهم.

يَا رِفاق...
تَذَكَّروا هذا جيداً
كَم مِن لَيالٍ قَبلَ هَذِه أَقسَمتُم أَنَّها لَن تَمضِي،
ثُمَّ غَدَت مَاضِيًا لا أَثَرَ لَه.
فَمَا الَّذي بَقِيَ عَلَى حَالِهِ؟
لا شَيءَ يُذكَر.

ختاماً يارفاق..
مَا تَعبُرونَهُ اليَومَ لَيسَ إِلَّا بَذرةً خَفيَّةً لِبِدايَاتٍ أَجمل، بُرهَةً تَجهَلونَ حِكمَتَها الآن،
وَلَكِنَّ الزَّمنَ سَيُريكُم
كَيفَ يُنبِتُ الخَيرُ مِن رَحمِ الشَّر.

مَا تَحمِلُونَهُ اليَومَ مِن أَلمٍ هُوَ صَقلٌ لِلرُّوحِ،
وَتَطهِيرٌ لِلنَّفسِ البشرية،
واَنصدام قاسٍ بِجُدرانِ الحَقيقَة.

فَاعلَموا أَنَّ كُلَّ ما يُوجِعُكُم اليَومَ
سَيُقيمُ فِيكُم قُوَّةً غَدًا،
وَأَنَّ ما كَانَ سَبَبًا فِي انكِسَارِكُم،
سَيَكون سَبَبًا فِي انتِصارِكُم.

كُن إنسَانًا

مِنَ الجَهلِ الدَّنِيءِ وَسُوءِ الخُلُقِ
أَن نَكُونَ مُتَطَفِّلِينَ عَلَى حَيَاةِ الآخَرِينَ
دُونَ أَيِّ حَقٍّ لَنَا،
وَمِنَ الجَهلِ العَمِيقِ وَالتَّخَلُّفِ غَيرِ المَسبُوقِ
أَن نَستَمرَّ فِي سُؤَالِ النَّاسِ عَمَّا يُوقِظُ
فِي قُلُوبِهِم
أوجَاعًا كَانُوا يُحَاوِلُونَ نِسيَانَهَا.

فَنَسأَلُ مَن لَم يَتَزَوَّج: لِمَ لَم تَتزَوَّج؟
وَنُكَرِّرُ السُّؤَالَ عَلَى مَن تَأَخَّرَ فِي الإنجَابِ: لِمَ لَم تُنجِب؟
وَنُخَاطِبُ السَّمِينَ: لِمَ ازددتَ سِمَنًا؟
وَنُحَاوِرُ الضَّعِيفَ: لِمَ أَصبَحتَ ضَعِيفًا؟

كُلُّهَا أَسئِلَةٌ لا يَحتَاجُ السَّائِلُ فِيهَا إِلَّا إِلَى كَفٍّ
يعِيدُهُ إِلَى صَوَابِهِ،
لِيَتَعَلَّمَ أَن لا شَأنَ لَهُ بِمَا لا يَعنِيه.

مَن نَحنُ يَا رِفَاقُ..
لِنَرمِيَ كَلِمَاتٍ تُوقِظُ وَجَعًا فِي قُلُوبِ غَيرِنَا؟
وَمَن مِنا لَم تُجبِرهُ الظُّرُوفُ
عَلَى أَشيَاءَ لَم يَخْتَرهَا بِمَحضِ إِرَادَتِهِ؟
ومنّ مِنّا لمّ تَختبِرُ الحيّاةَ صَبرُه
فيّ أعزّ ما يملك؟؟

فَلَا تَتَطَفَّل عَلَى حَيَاةِ أَحَد،
وَلَا تَسأَل عَن خُصُوصِيَّتِهِ؛
فَلَو أَرَادَكَ أَن تَعلَمَ لَأَخبَرَكَ قَبلَ أَن تَسأَل.

كُونُوا فَطِنِينَ بِمَوَاجِعِ الآخَرِينَ،
وَدَارُوا الوَجَعَ بَدَلًا مِن أَن تُوقِظُوهُ.

أَلقُوا كَلِمَاتٍ كَالبَلسَمِ لَا كَالسُّم،
أَخبِرُوا مَن تُصَادِفُونَ أَنَّهُ جَمِيل،
وَإِذَا شَكَا لَكُم أَحَدٌ عَيبًا فِي جَسَدِهِ
فَزِيدُوهُ ثِقَةً بِنَفسِهِ وَقُولُوا لَهُ:
بَل أَنتَ مُتَمَيِّزٌ بِمَا فِيك.

يَا رِفَاقُ،
عَالَمُنَا مَليءٌ بِالوَجَعِ،
وَفِي قَلبِ كُلٍّ مِنا مَا يَكفِيهِ،
فَالعَالَمُ لَيسَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَن يَزِيدُ جِرَاحَهُ،
بَل إِلَى مَن يُدَاوِيهَا.

فَكُونُوا المَلَاذَ الآمِن،
وَارْتَفِعُوا عَن خُصُوصِيَّاتِ الآخَرِينَ وَتَتَبُّعِهِم.

وَكُن إِنسَانًا يَزرَعُ فِي القُلُوبِ سَلَامًا،
وَيُخلِّفُ فِي الأَرْوَاحِ أَثَرًا جَمِيلًا لَا يُنسَى.

الثِّقَةُ بِاللهِ بَدَايَةٌ بَعْدَ كُلِّ نِـهَايةٍ

كثيرًا ما نَظُنُّ أَنَّ السُّقُوطَ هُوَ آخِرُ الحِكايةِ،
وَأَنَّ الأَبْوَابَ حِينَ تُغْلَقُ تَتْرُكُنَا عالِقِينَ
فِي عَتَمَةٍ لا مَخْرَجَ لَهَا.

لَكِنَّ مَنْ يَضَعُ قَلْبَهُ بَيْنَ يَدَي اللهِ،
يُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ إِغْلَاقٍ يُخْفِي وَرَاءَهُ فُرْصَةً أَوْسَعَ،
وَكُلَّ نِهَايةٍ تَحْمِلُ فِي أَعْمَاقِهَا مَلامِحَ بَدَايَةٍ
لَمْ تَكُن لِتُولَدَ لَوْلَا ذاكَ الأَلَمُ.

الثِّقَةُ بِاللهِ
تَمْنَحُنَا طُمَأْنِينَةَ المُسَافِرِ فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ،
يَتَيَقَّنُ أَنَّ المَاءَ قَرِيبٌ وَإِنْ لَمْ يَرَهُ.
هِيَ الَّتِي تُحَوِّلُ الانْكِسَارَ إِلَى قُوَّةٍ،
وَتَجْعَلُ الرُّوحَ تَنْهَضُ مِنْ أَوْجَاعِهَا كَمَنْ يَكْتَشِفُ دَاخِلَهُ جَنَاحَيْنِ جَدِيدَيْنِ.

وَمَعَ اللهِ،
لا تُصْبِحُ النِّهَايَاتُ مُخِيفَةً
بَل تَغْدُو مَرَافِئَ عابِرَةً،
نَسْتَرِيحُ فِيهَا قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ نُبْحِرَ مُجَدَّدًا إِلَى آفاقٍ أَرْحَبَ.

فَكُلُّ نِهَايةٍ مَعَهُ لَيْسَتْ سِوَى
فَجْرٍ يَتَسَلَّلُ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ.

صرّخـاتٌ بّين السّـطوُر

وأعودُ لأتَفحَّصَ الكِتاباتِ حَرْفاً حَرْفاً،
وأتأمَّلُ طويلاً في مَشاعِرِ مَن سَطَّرُوها،
علِّي أجدُ بين سُطورِها جواباً،
أو بين حُروفِها بَصيصَ ضَوءٍ
يُبدِّدُ عَتَمةَ هذا الواقعِ المُرّ.
كِتاباتٌ كَثيرة، وكَلِماتٌ غَزيرة،
حِبرُها دَمُ الأرواح، وسُطورُها أكفانٌ لا أوراق،
كلماتٌ صادقةٌ حَملَتْ صُورَ الواقع،
لا خيالَ فيه ولا تَزيين.

أجيبوني:
لِمَ لَمْ تتحرَّكْ ضمائِرُكم؟
لِمَ مرَرتُم عليها كأنَّها هَباء؟
لِمَ لم ترتَجِفْ أوصالُكم خوفاً؟
لِمَ لمْ تَغْلِ قلوبُكم قهراً؟
لِمَ لمْ تَفيضْ عيونُكم دمعاً؟

أمَا بلَغَكُم صَوتُ الجائعِ وهو يَكتُبُ؟
أمَا رأيتُم رَجْفةَ الخائفِ وهو يَخطُّ كَلِمَتَه؟
أمَا سَمِعتُم صَدى القَصفِ والنُّزوحِ
والفَقد وهو يَئنُّ بينَ الحُروف؟

كُلُّ تلك المشاعِرِ كانتْ تسكُنُ جَسَداً واحِداً،
قلباً واحداً، إنساناً واحداً.

باللهِ أجيبوني:
كيفَ تَمُرُّ أمامَكم تِلك الكلمات،
فلا تَدمَعون، ولا يَسهَرُ جَفنُكم،
ولا يَنقبِضُ صَدرُكم؟
أتَخيَّلُ بينَ الحُروفِ لو كنتُم مكانَه؛
فيَعتَصِرُ قَلبي الألمُ حينَ أرى الحقيقةَ
تَنبِضُ في كُلِّ حَرف، وتصرُخُ في كُلِّ جُملة.

العيبُ لم يَكُن في الكِتابات،
فهيَ شَرَحتْ وأعادَتْ وكرَّرَتْ
بلا كَللٍ ولا مَللٍ ولا يَأس،
وهيَ تُصوّرُ ما يَحدُثُ كما هو.

لكنَّ العَيبَ كلَّهُ في القارئ،
حينَ يَضعُ على عَينَيه غِشاوةَ الباطل،
وحينَ يُغلِّفُ بَصيرتَه بظُلمةِ الأعذار.

العَيبُ في القارئ،
حينَ يُخدِّرُ ضميره بألفِ حُجَّةٍ
وذريعة، كلها فاضحةٌ،
خادشه للمروءة،
لا تمتُّ للإسلامِ بصِلة.

أيقَنتُ أنَّ كلمةَ الحقّ،
وشُعورَك بمُصابِ أخيك،
لا يَحتاجانِ إلى عَظَمةٍ أو مَوقفٍ عَظيم،
يكفي فقط أن تَكونَ إنساناً.

إنسانـاً لا أكثَر.

أمٌّ ثَكلى، أو طفلٌ يَتيم،
أو نازحٌ مُشرَّد، أو جَريحٌ يَفتَرِشُ التُّراب،
أو رَجلٌ عادَ بِجُثَّةِ ابنِه بَدَلاً مِن كيسِ الطَّحين.
في كُلِّ مَنشورٍ دمعةٌ لم تُذرف،
وصَرخةٌ لم تُسمَع،
وحُروفٌ يَجِبُ أن تُبكِي القلوبَ قبلَ العيون.

إنَّ غَزَّةَ ـ يا سادة ـ
لم تَكُنْ صَفحةً عابِرةً،
بل كانتْ مِرآةً كَشَفَت حقيقةَ العالَم.
في قضيَّتِها إمّا أبيضٌ أو أسود،
إمّا مؤمِنٌ أو غَيرُ مؤمِن، ولا خيارَ ثالث.
فإذا نُطِقَ اسمُ غَزَّة،
سَقَطَتِ الوسطيَّة،
وانتَهَتِ المُراجَعة،
وبَطُلَ التفاوُض،
وسَقَطَتِ الأعذارُ والحُجَج،
وغابَ الحوارُ والنقاش.

غَزَّةُ سَقَطَت معها الأقنِعَة؛
إمّا أن تَكونَ إنساناً، وإمّا ألّا تَكون.
واللهِ، لو كُنتَ جَماداً
لكانَ فيكَ خيرٌ أكثَر من بعضِ القلوب.

وفي الخِتام،

غَزَّةُ لم تَكُنْ حِزباً ولا طائِفةً،
لم تَكُنْ حَدَثاً عابِراً ولا صُورةً نادِرة،
بَلْ كانَتْ وما زالَتْ مِصفاةً
تَساقَطَ فيها الكَثيرون.
وفيها ظَهَر التَّطبيعُ والتَّهاوُن،
والتفاوُضُ مع مَن فاوضوا اللهَ في بَقَره.

غَزَّةُ كانتْ بَدَايةَ الطوفانِ اليهودي،
ونِهايةَ كُلِّ الشِّعاراتِ التي خُدِعنا بها.

فلا العَربُ كانوا إخوة،
ولا الضادُ كانت رابطة.
فلمّا اشتكى عُضوٌ،
كان سائرُ الجَسَدِ يَلهو في مَسرَّاتِه.

لم تَكُنْ غَزَّةُ بَدَايةَ الطوفان،
بل كانتْ نِهايةَ المروءةِ في قُلوبِ العربان.

حينَ نَنهَضُ

نَسقُطُ أَحيانًا مِرارًا،
نَتَعثَّرُ حتّى يَظُنَّ أَحدُنا أَنَّهُ
لَن يَقفَ بَعدَ الآن.

وَلَكِن، مَعَ كُلِّ مَوجَةِ سقوط،
يَنبُتُ فِينَا شَيءٌ غَيرُ مَرئي،
قُوَّةٌ صَغيرَة تَدفَعُنا لِلنُّهوضِ مَرَّةً أُخرى.
وَالمُدهِشُ أَنَّ كُلَّ نُهوضٍ يَشبِهُ البِدايَة؛
كَأَنَّنا نُولَدُ مُجدَّدًا
وَنَتَعلَّمُ أَن نُحبَّ الحَياةَ بِصُورَةٍ أَعمَق.

فَمَا أَجمَلَ أُولئِكَ الَّذينَ يَسقُطُونَ أَلفَ مَرَّة،
وَيَنهَضُونَ كُلَّ مَرَّةٍ بِقَلبٍ أَدفَأ وَإِنسَانِيَّةٍ أَكبَر.
هُم أولئك الَّذينَ يَحمِلونَ فِي أَعيُنِهِم
ضَوءًا يَهتَدِي بِهِ غَيرُهُم،
وَيَزرَعُونَ فِي طَرِيقِهِم زُهورًا
وَلَو كَانُوا أَوجَعَهُمُ الطَّرِيق.

هُم شَواهِدُ حَيَّةٌ
عَلَى أَنَّ النِّهايَةَ لَيسَت إِلّا بَابًا خَفِيًّا
لِبِدايَةٍ أُخرى،
فَالنُّهوضُ بَعدَ كُلِّ سُقوط،
لَيسَ مُجرَّدَ عَودَة،
بَل هُوَ خَلقٌ جَدِيد لِلرُّوح.

القّوّة فيّ صمتِ الجِراحّ

وَأَنْتَ تَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الأَلَمِ،
وَتَسْتَنْزِفُ رُوحَكَ،
وَتَجِدُ نَفْسَكَ فِي قَاعِ اليَأْسِ،

لا تَنْظُرْ لِلآخَرِينَ كَأَنَّ سَعَادَتَهُمْ دَائِمَةٌ،
وَلَا تَظُنَّ أَنَّهُمْ يَخْلُونَ مِنَ الآلَامِ.

يَا رُفَاق الرُّوحِ،
كُلُّنَا نَحْمِلُ فِي صُدُورِنَا أَوْزَارًا وَآلَامًا
تَثْقُلُ كَاهِلَنَا.
لَيْسَ كُلُّ الجِرَاحِ تُرَى،
وَلَا كُلُّ الدُّمُوعِ تُسْمَعُ.
بَعْضُنَا غَارِقٌ فِي خُذْلَانٍ،
وَبَعْضُنَا يَتَلَقَّى وَجَعَ الفَقْدِ،
وَآخَرُونَ يَكْتَوُونَ بِضَجِيجِ أَفْكَارِهِمْ وَجِرَاحِ قُلُوبِهِمْ.

وَلَكِنَّ فِي خِضَمِّ الظُّلامِ،
هُنَاكَ مَنْ وَجَدَ شَاطِئَ الأَمَلِ،
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِقَشَّةٍ تَهُدُّهُ نَفَسُ الرَّجَاءِ،
وَمَنْ اسْتَعَانَ بِنَفْسِهِ لِيَسْبَحَ حَتَّى يَنْجُو.

فَلا تَحْسِبَنَّ الضَّحِكَ وَالطُّمَأْنِينَةَ ظَاهِرَةً،
فَكَمْ مِنْ شَخْصٍ يُخْفِي لَيْلَهُ بِضَحْكَ النَّهَارِ؟

تَعَلَّمِ القُوَّةَ فِي صَمْتِ الجِرَاحِ،
وَالنُّهُوضَ بَعْدَ السُّقُوطِ،
فَلَا طَاقَةَ لِلآخَرِينَ بِحَمْلِ
وَجَعِكَ فَوْقَ وَجَعِهِمْ.
كُلُّنَا نَخُوضُ حُرُوبًا،
وَكُلُّنَا نَحْتَاجُ لِوَسَطٍ لِنَنْتَصِرَ فِي صَمْتِ أَرْوَاحِنَا.

فَلْتُعْلِنِ نَصْرَكَ،
أَوِ انْسَحِبْ لِتَلْتَقِي بِنَفْسِكَ،
وَارْفَعِ الرَّايَةَ البَيْضَاء فِي هُدُوءِ القَلْبِ،
فَالْبِدَايَةُ مِنْ نِهَايَاتِكَ،
وَالنُّورُ يَنْبُتُ مِنَ الظَّلَامِ.

اجبر تُجْبَر

حَدِّثُونِي عن أعظمِ الأعمالِ الإنسانيةِ،
أُحَدِّثُكُم عن جَبْرِ الخَوَاطِرِ
يا رفَاقُ،
في عَالَمٍ يَضُجُّ بالانشِغَالِ،
وصدِق السؤال عن الحَال
عالمُ يعّيشُ رغمّ الاجتماع فيّ انعزال

جمَيعُنا غارقين في أَوْلَوِيَّاتِنا،
مُنشَغِلِين بمهامّنا،
كلُّ واحدٍ يعيشُ عَالَمَه الخاصَّ.
هناك من لا يطلبُ سوى كلمةٍ حَانِيَةٍ،
كعِناقٍ يدفئُ قلبًا مرتعِبًا،
كلمسةٍ تطمئنُ روحًا مُتعَبَةً...
فقط يَسْتَجِدُّونَ يدًا تمتدُّ إليهم،
لتُنقِذَهُم من وحلِ اليَأْسِ الذي يَغرقون فيه.

صَدِّقني يا صاحِ،
الكثيرُ، ولو لم يكن الجميعُ،
يحتاجُ سؤالًا صادقًا عن حاله،
يذكّره بأنَّه مهمٌّ،
وأنَّه ليس وحيدًا...
يحتاج أُذنٌ صاغيَيّه فقط تُصغي إلى بَوحِه الطويل
بلا انقطاع.
هناك من ينتظر سماعَ كلمةٍ واحدةٍ:

"أَنَا مَعَكَ"، لتستكينَ نفسُه الخائفة.

مِنْ مَنَا يا رِفَاقُ لم تُعطَّفْ له الحياةُ قلبُه؟
ومن منا لم يتجرَّع صَبْرًا طَويلًا بصمتٍ،
وهو يرى تشوُّهات الروح تتكاثر؟
ومن منا لم يصمت،
وفي داخله بَرْكانُ كلامٍ لا يَهْدَأُ؟
العَالَمُ من حولنا مَلِيءٌ بالوَجَعِ،
ولكلِّ إنسانٍ حكايةٌ مع الألم...
لو حدثكَ عنها، لبكت الكلماتُ دَمًا.
فلا تنتظرْ أحدًا لِيُفَسِّرَ لك معاناته،
كُنْ أنت الملاذَ الآمنَ، الصادقَ،
السندَ الذي لا يَمِيلُ،
الرفيقَ الذي لا يَخُونُ.
وَتأكَّدُوا أن الجميعَ يُعَانِي،
فَلَا تَزيدُوا فَوْقَ جِرَاحِهِمْ لَوْمًا،
أو كَثْرَةَ عِتَابٍ، أو سُوءَ ظَنٍّ.

خِتَامًا يا رِفَاقُ،
وَاللَّهِ، إنك حين تُجْبِرُ أحدهم،
سترى جَبْرَ اللَّهِ لك عظيمًا،
جَابِرًا، شافِيًا، وكافيًا.
وتذكّروا
أن من سار بين الناس جَابِرًا للخواطر،
أَدْرَكَهُ اللَّهُ في جوفِ المخاطر.

اجبرْ غيرك، يُجبرْ قلبك...

عُقولٌ في ظَلامٍ

يُؤلِمُني، حَدَّ الفَجيعَةِ،
أن نَكونَ في القَرنِ الحادِيَ والعِشرينَ،
وما زالَ بَينَنا مَن يَعيشُ على فُتاتِ القيلِ والقالِ،
.كَأنَّ الزَّمَنَ لَم يَخطُ خُطوَةً نَحوَ النُّورِ

:يَحزُنُني أن أرى في مُجتَمَعي
عُقولًا خاوِيَةً إلَّا مِنَ الضَّجيجِ،
ونُفوسًا عَليلَةً،
لا تَرى في الوُجودِ إلَّا ظِلالَ الآخَرينَ لِتَتبَعَها،
.ولا في الحَياةِ إلَّا أخطاءَهُم لِتَلتَقِطَها

أيُّ حَياةٍ هذه تخلو مِنَ الحُلمِ،
وتَفِرُّ مِن مُواجَهَةِ الذَّاتِ،
وتَستَثقِلُ رُؤيةَ النّاجِحينَ،
كَأنَّ النَّجاحَ شَوكَةٌ في حُلوقِهِم،
.وكأنَّ فَرحَ الآخَرينَ وَبالٌ عَلَيهِم

أرواحٌ تَستَبشِرُ بِجِراحِ غَيرِها،
وتَقتاتُ على تَشويهِ السُّمعةِ،
وتَنصِبُ المَشانِقَ لِكُلِّ مُخالِفٍ،
.وتَحسَبُ أنَّ الانحِدارَ إلى وَحلِ الأعرَاضِ انتِصارٌ

إنَّهُم ـــ واللهِ ـــ عِبءٌ على أوطانِهِم،
وجُرحٌ في جَسَدِ المُجتَمَعِ،

.وداءٌ لا يُشفَى إلَّا بِعِلاجِ الجُذورِ

:— وتَذَكَّروا — يا رِفاقُ
حينَ تَصونُ حُدودَ غَيرِكَ،
···فَالآخَرونَ مُلزَمونَ بِاحتِرامِكَ
.لا بِفَضلٍ مِنكَ، بَل بِحُكمِ الحَقِّ والكَرامَةِ

مُرَّ هَيّناً

يا رِفاقُ، ترفَّعوا عن تَفاهاتِ الأُمورِ،
وارتقوا بأرواحِكم فوقَ صَغائرِها؛
فالنفسُ أكرمُ من أن تُدنَّسَ بسَفاسِفِ الدُّنيا،
وأجملُ من أن تُقاسَ بما لا يَزيدُها إلا وَهناً.

اعلَموا قَدرَ ذواتِكم،
ولا تُنزِلوها مَنزلةً تُفقِدُها بهاءَها،
فمَن عَرَفَ قيمتَهُ لم يَرضَ أن يَكونَ إلّا عالياً.

لا تُكثِروا من العِتابِ،
فالإكثارُ يَقتُلُ المودَّة،
ولا تَفتِّشوا عن ثَغَراتِ الآخرين،
فكلُّ قلبٍ فيه من الكَسورِ ما يُغنيه.
لا تُسِيئوا الظَّنَّ،
فإنَّ الظَّنونَ سهامٌ تُصيبُ القلوبَ
قبلَ أن تُصيبَ أصحابَها،
ولا تَتحامَلوا على مَن أَدارَ ظهرَه لكم،
فلكلٍّ حِكايةٌ يَجهلُها الغير.

دَعوا الأُمورَ تَجري كما شاءَ اللهُ لها أن تَجري،
ببَساطةٍ تُخفِّفُ أثقالَكم،
وهُدوءٍ يَزرعُ في أرواحِكم سَكينة.

فواللهِ إنَّ في قَلبِ كلٍّ منَّا ما يَكفيهِ من العِبءِ والألَم،

فلا تكونوا حِملاً فوقَ أحمَالِ بعضِكم.
كونوا رِفقاً في المَسير،
وهَيّنين لَيّنين؛
فإنَّ الأرواحَ المرهَقةَ لا تحتملُ مزيداً من القَسوة.

اتركوا الناسَ في راحَتِهم،
ولا تُضيّقوا عليهم بأحكامِكم وظنونِكم،
وعِيشوا أنتم براحتِكم،

ففي الرّضا سلام وفي التَّغافل حِكمة،
وفي السُّموِّ حياة.

مِن رَحِمِ المُعاناةِ يُولَدُ الإبداعُ

جِراحُكَ الَّتي أثقَلَت كاهِلَكَ،
ومَزَّقَت خُيُوطَ الفَرحِ في قَلبِكَ،
هِيَ ذاتُها الَّتي سَتَصنَعُكَ مِن جَديدٍ،
فَلَولاها ما اشتَدَّ عُودُكَ،
ولا صَلبَت روحُكَ في مَهبِّ الرّيَاح.
ولَولاها لَظَلَّت الصَّدَماتُ تَعبَثُ بِكَ،
تَذْرُوكَ في كُلِّ وادٍ مِن أَودِيَةِ الألَمِ والانكسارِ.

دُموعُكَ الَّتي تَتَساقَطُ خُلسَةً،
وتَخونُكَ أَمامَ ثِقْلِ ما تَحمِلُ،
سَتَجفُّ يَومًا،
وتَصيرُ صَخرًا لا يَبلُلُه مَطَرُ العابِرينَ.

وخِذلانُكَ الَّذي أوجعك وخوفك الَّذي أَربَكَكَ،
سَيَكشِفانِ لَكَ أنَّ الله هُوَ المَلاذُ الأَمْنُ،
والوَطنُ الثّابِتُ الَّذي لا يَخونُ.
وبانكِسارِكَ أَمامَ بَابِهِ، وبِفَضلِهِ،
سَتُصاغُ أَفضَلُ نُسخَةٍ مِن ذاتِكَ.

اعلَم أنَّ ما تَراهُ نِهايَةً اليَومَ،
ليسَ سِوى طَريقٍ يُفْضي إلى بِدايَةٍ
لَم تَكُنْ لِتَخطُرَ في خَيالِكَ.

فَلا تَفرَّ مِن حُزنِكَ، ولا تُنكِرْهُ،

بلِ احمِلْهُ كما يُحمَلُ الطِّفلُ في حِضنِ أُمِّه،
وأَعطِه نَصيبَه مِن الزَّمنِ؛
فالحُزنُ الَّذي لا يُعاشُ يَظلُّ جَرحًا مُعلَّقًا.

صَحيحٌ أنَّ الخُروجَ مِن دَوامةِ ما أَنتَ فيهِ ليسَ سَهلًا، وليسَ هيّنًا،
لكنَّها أيّامٌ تُكابِدُها،
وأَنتَ أَعلَمُ أنَّها سَتَمُرُّ، كَما يَمُرُّ كُلُّ شَيء.

فاختَرْ كَيفَ تُريدُ لَها أن تَمُرَّ،
واخترْ لِنَفسِكَ أيَّ صُورةٍ سَتُصبِحُ عليها
بَعدَ أَن يَنجَلِي الغُبارُ.

نجّـاه الذّات

لَطالَما كانَت أَشَدُّ المَعارِكِ
هِيَ تِلكَ الَّتي يَخوضُها الإنسانُ
بَينَ رَغبةِ البَقاءِ وَوَجَعِ المُغادَرَةِ،
فَفي داخِلِهِ ساحةٌ لا يَراها أَحَد،
ساحةٌ يَتصارَعُ فيها الأملُ واليأسُ،
القُوَّةُ والوَهنُ، الحُلمُ والانكسارُ.

وَلَعَلَّ أَقسى الخَساراتِ،
لَيسَت فَقدَ مالٍ وَلا وُدٍّ، وَلا وُجهةٍ أو مَكانٍ،
بَل هِيَ تِلكَ الَّتي يَفقِدُ فيها الإنسانُ نَفسَهُ،
فَيُصبحُ جَسَداً بِلَا رُوح، وَظِلّاً بِلَا مَعنى.

مَهْما عَظُمَت خَسارتُكَ،
فَما دُمتَ تَحتَضِنُ نَفسَكَ وَتَصُونُها،
فَصَدِّقني أَنَّ كُلَّ ما عَداها هَباءٌ عابِرٌ،
وَجِراحٌ تُبرَأُ بِمُرورِ الزَّمانِ.

يَا رِفاق،
إنَّ فَقدَ الذّاتِ هُوَ مَوتٌ أَبطَأ مِنَ المَوتِ،
وَوَجعٌ لا يُداويهِ طِبٌّ وَلا عُمر.

تَمسَّكوا بِأَنفُسِكُم،
وَلا تَسمَحوا لِلأَيّامِ أَن تَنتَزِعَهَا مِنكُم تَحتَ أَيِّ مُبرِّرٍ.
فَالفَردُ مِنَّا لا يَملِكُ سِوى كَرامَتِهِ وَعِزَّةِ نَفسِهِ،

فَإذا باعَهُما،
عاشَ ذَليلًا وَإن تَزَيَّنَ بِأَلقابِ السَّيادَةِ.

وَأَخيراً ـ يَا رِفاق ـ

تَذَكَّروا:
كُلُّ خَسارَةٍ تَحتَ سِتارِ الحِفاظِ عَلَى نَفسِكُم،
وَاللهِ،
ما هِيَ إلّا مَكاسِبٌ جَليلة،
وَسَتُدرِكونَها عاجِلاً،
وَقَريباً جِدّاً،
حِينَ يَنكَشِفُ غُبارُ الطَّريق،
وَتَفهَمونَ أَنَّكُم لم تفقدوا بل نَجوتم.

على خُطئ العُظمّاء

في هَذَا العَالَمِ المَزدَحِمِ بِالأَحدَاثِ،
المُثخَنِ بِالذِّكرَياتِ وَالأَوجَاعِ،
كَثيرًا مَا يَجِدُ الإنسَانُ نَفسَهُ
وَاقِفًا عَلى أَطْلَافِ التَّأَمُّلِ،
يَبحَثُ فِي كُتُبِ التَّاريخِ عَن إجَابَاتٍ لِأَسئِلَةٍ مُلِحَّةٍ:

مَا الَّذِي صَنَعَ العُظَمَاء؟
مَا الَّذِي جَعَلَ أُمَمًا كَانت فِي قَاعِ الضَّعفِ
تَرتَقِي إِلَى ذُرَى المَجدِ؟
وَمَا الَّذِي جَعَلَ أَصوَاتَهُم تَصدَحُ فِي فَضاءِ الزَّمَنِ حَتَّى تَكُونَ دُرُوسًا وَعِبَرًا؟

وَقَفتُ مُتَأَمِّلًا،
أُحادِثُ ذَاتِي وَأُحاوِرُ أَصداءَ التَّاريخِ،
أَتَساءَلُ بِحَيرةٍ:
مَا الَّذِي جَعَلَ تِلكَ الأُمَمَ العَظِيمَةَ تَرتَفِعُ فَوقَ جِرَاحِهَا،
وَتَنهَضُ مِن بَينِ رُكَامِ ضُعفِهَا،
لِتُسطِّرَ فُتوحَاتٍ وَانتصَارَاتٍ
خُلِّدَت فِي كُتُبِ الزَّمَنِ وَبَقِيَت
عَلَامَاتٍ مَشرُوعَةً فِي ذَاكِرَةِ البَشَرِيَّةِ؟

مَا الَّذِي جَعَلَ أَسمَاءَهُم تَصدَحُ فِي
سَمَاءِ المَجدِ حَتّى يَومِنَا هَذَا،
وَتُصبِحُ مَدارِسَ تُدَرَّسُ وَنَماذِجَ يُحتَذَى بِهَا؟

تَساءَلتُ عَن سِرِّ ذَلِكَ التَّجمُّعِ العَجِيبِ
حَولَ رَجُلٍ واحِدٍ؛
كَيفَ انصَهَرَت القُلُوبُ حَولَهُ دُونَ مَطَامِعَ أَرضِيَّةٍ،
أَو أَهوَاءٍ دُنيَوِيَّةٍ؟
كَيفَ اجتَمَعُوا عَلَيهِ دُونَ أَن يَطلُبُوا مِنهُ مُقابِلًا؟

مَا الَّذي مَنَحَهُم صَلابَةً وَعَزِيمَةً تَجعَلُهُم يَتَخَطَّونَ العَوَائِقَ،
وَيُواجِهُونَ جُيُوشًا تَفُوقُهُم عُدَّةً وَعَدَدًا، فَيَخرُجُونَ مَرفُوعِي الرَّأسِ،
مُتَوَّجِينَ بِنَصرٍ مَجِيدٍ؟

تَأَمَّلتُ فَتَشَابَهَتِ الأَحوالُ وَتَشَابهَتِ الصُّوَرُ،
وَلكِنِ اختَلَفَتِ القَضَايَا.
وَكُنتُ كُلَّمَا غُصتُ فِي حُروفِ التَّاريخِ،
أَزدَادُ يَقِينًا أَنَّ السِّرَّ لَم يَكُن فِي
السُّيُوفِ وَلا فِي الجُيُوشِ،
بَل فِي صِدقِ الإِيمَانِ وَنُبلِ القَضِيَّةِ.

كَانُوا يَحمِلُونَ مَعهُم قُوَّةً أَكبَرَ مِن السِّلاحِ،
قُوَّةً تَسكُنُ القُلُوبَ وَتُلهِمُ الأَروَاحَ،
فَتَجعَلُ المَوتَ فِي سَبِيلِ مَبدَئِهِم حَيَاةً،
وَالخَوفَ الَّذي يَكسرُ غَيرَهُم،
مَصدَرَ قُوَّةٍ يَدفَعُهُم لِلأَمَام.

وَمَا أَبهَى المِثالَ فِي رَسُولِنَا الأَعظَم ﷺ؛
حِينَ وَحَّدَ الأُمَّةَ تَحتَ رَايَةِ التَّوحِيدِ،
فَنَقَلَهُم مِن قُبُورِ التَّفرُقِ وَالضَّعفِ

إِلَى سُوحِ العِزَّةِ وَالكَرَامَةِ،
وَحَوَّلَ قِلَّتَهُم إِلَى كَثْرَةٍ،
وَذُلَّهُم إِلَى عِزٍّ،
وَخَوفَهُم إِلَى أَمنٍ،
حَتّى أَصبَحُوا أُسُودًا فِي المَعَارِكِ،
وَمَصَابِيحَ هُدىً فِي طُرُقِ الحَيَاةِ.

يَا رِفَاق،
إِنَّ فِي أَعمَاقِ كُلٍّ مِنا طَاقَاتٍ مَخزُونَةً لَا تُقَدَّرُ،
وَقُوًى خَارِقَةً لِلتَّغْيِير، تَنتَظِرُ مَن يُحَرّرُهَا.

مَا أَكثَرَ الَّذِينَ ظَلُّوا سُجَنَاءَ عَجزِهِم
لِأَنَّهُم لَم يُدرِكُوا أَنَّ الحَدُودَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ فِي عُقُولِنَا نَحنُ،
وَأَنَّ الأَسوَارَ الَّتي تُقَيِّدُنَا
هِيَ أَوهَامٌ نَصنَعُهَا بِأَيدِينَا.

كُلُّ مِنا يَستَطِيعُ أَن يَكُونَ مِثلَ
أُولَئِكَ العُظَمَاء؛
فَالمَجدُ لَيسَ وَقْفًا عَلَيهِم،
بَل هُوَ مَسرَحٌ فَسِيحٌ،
مَن دَخَلَهُ بِإِيمَانٍ صَادِقٍ وَعَزِيمَةٍ رَاسِخَةٍ
وَقَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ،
سَيَكتُبُ اللهُ لَهُ فِيهِ مَكَانًا بَينَ الكِبَار

ختاماً يارفاق
إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى المَجدِ لَيسَ مَفرُوشًا بِالوُرُودِ،
بَل هُوَ مَسِيرَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الجُهدِ وَالصِّدقِ وَالصَّبرِ.

وَلكِنَّ العَظَمَةَ تَظلُّ مَفتُوحَةَ الأَبوَابِ لِمَن طَرَقَهَا بِقَلبٍ مُؤمِنٍ وَنَفسٍ مُخلِصَةٍ.
فَكونُوا أَنتُم أَصحَابَ القَضَايَا العَادِلَةِ،
وَاحمِلُوا مَعَكُم صِدقَ الإِيمَانِ وَقُوَّةَ العَزِيمَةِ،
وَستَكتُبُ الحَيَاةُ أَسمَاءَكُم فِي دَفتَرِ الخَالِدِينَ.

فَالمَجدُ – يَارفاق–
لَيسَ حُلمًا نَنتَظِرُهُ،
بَل حَقِيقَةً نَصنَعُهَا،
وَالتَّارِيخُ لَيسَ أَورَاقًا نَقرَؤُهَا،
بَل أَفعَالًا نَخطُّهَا.
فَكونُوا أَنتُم التَّارِيخَ الجَدِيدَ،

وَاترُكُوا أَثرًا يَشهَدُ أَنَّكُم عَبرْتُم الحَيَاةَ
بِقُوَّةٍ وَعَزمٍ وَإِيمَانٍ.

صَفعـةُ الوعيّ

أَعرِفُ جَيّدًا ذاكَ الانْكِسارَ السّاكنَ في عَينَيكَ،
وأُدرِكُ مَعْنَى الخُذلانِ الَّذي نَزَفَ رُوحَكَ...
حتّى أَطفَأَ بَريقَها.

وَمَن مِنّا – يا رِفاق –
لَم يَذُقْ لَحظاتٍ تُشْبِهُ المَوتَ البَطيءَ؟
وَمَن مِنّا لَم تَمرَّ بهِ ساعَاتٌ صارَ فيها حتّى التَّنَفُّسُ أَلَمًا؟

إِنّي أُخاطِبُكُم بِلِسانِ المُجرَّبِ لا بِلِسانِ الطَّبيبِ،
بِلِسانِ المُحِبِّ الَّذي ذاقَ الجُرحَ وعَرَفَ وَقعَهُ،
لا بِلِسانِ مُثاليٍّ يَجهَلُ مِنَ الأَلَمِ إِلَّا اسمَهُ.

يَا مَن تَتَخَبَّطُ الآنَ فِي نَهرٍ مِن وَجعٍ عَميقٍ،
وتَبحَثُ عَن قاربٍ يُنقِذُكَ،
هَا أَنا أَمدُّ إِلَيكَ كَلِماتي كَحَبلِ نَجاةٍ،
فَتَمسَّكْ بِها جَيّدًا.

أَلقِ بَصَرَكَ حَولَكَ... أَعِدِ النَّظَرَ...
تَأَمَّلْ وُجوهَ النّاسِ، راقِبْ سَيرَ حَياتِهِم.
مَاذا تَرى؟
أَراهُ عنكَ: كُلٌّ يَسيرُ فِي دَربِهِ مُثْقَلًا بِهُمومِهِ،
كُلٌّ يُصارِعُ دُنياه،
يَتذوَّقُ صُعوباتِها، ويَحمِلُ مَرارَةَ فَقدِهِ.
إِنَّهُ المَشهَدُ الواضِحُ:

الجَميعُ مَشغولٌ بِحياتِهِ، ولَا أَحَدَ يَتوقَّفُ عِندَكَ.
حتّى الَّذي يَسأَلُكَ عن حالِكَ إنَّما يَفعَلُهُ إمَّا عادَةً أو مَجامَلَةً، ثُمَّ يَمضي.

فأَخْبِرني – بِصِدْقٍ –
أَكُنتَ تَظُنُّ أَنَّ الوَقتَ سَيَتوقَّفُ لِأَجلِ أَحزانِكَ؟
أَم تَوقَّعتَ أَن يَنكَسِرَ العالَمُ مَعكَ؟

نَعَمْ، أَنتَ تَتَألَّمُ، وأَعرِفُ ذلِكَ...
ولَكِنْ ماذا جَنَيتَ مِنِ استِسلامِكَ لِحُزنِكَ
سِوى مَزيدٍ مِنَ الوَهنِ؟
أَمَا أَدركتَ أَنَّكَ رَحَّبتَ بِالأَلَمِ كَضَيفٍ عَزيزٍ
وأَجلَستَهُ فِي صَدرِكَ؟

اِنهَضْ!
كَفى سُقوطًا وانكِسارًا. مَهما كانَ ما فَقدتَ،
أو خَسرتَ، أو أَضعْتَ،
فَلا شَيءَ يَستَحِقُّ أَن يَسرِقَ مِنكَ نورَكَ.

تَأَمَّلْ حَولَكَ:
لَن يَأتِيَكَ أَحَدٌ بِباقَةِ وَردٍ مُعتَذِرًا
عَمّا فَعَلَتهُ بِكَ الحَياةُ،
ولَن يَكونَ أَحَدٌ دَواءً لِجِراحٍ لَيسَتْ جِراحَهُ.
الكُلُّ مَشغولٌ بِحَياتِهِ، فَاشغَلْ نَفسَكَ أَنتَ بِحَياتِكَ.

أَعلَمُ أَنَّ كَلِماتي قاسِيَةٌ،
ولَكِنَّها الحَقيقَةُ الَّتي تَحتاجُها؛
كَصَوتٍ يَصفَعُ غَفلَتَكَ لِيوقِظَكَ.

فانظُرْ إلى داخِلِكَ:
ما زِلتَ تَتَنَفَّسُ، وما زالَ فِي العُمرِ مُتَّسَعٌ.
أَمَا آنَ أَن تُصالِحَ نَفسَكَ وتَعتَذِرَ لَها؟
أَمَا آنَ أَن تعلن نهاية صَفحَةَ أَمسِكَ وتَكتُبَ بداية جَديدةً؟

اكتُبْها بِقَلَمِكَ أَنتَ،
وبِإرادَتِكَ أَنتَ،
فَلا أَحَدَ يَملِكُ حَقَّ كتابَتِها سِواكَ.

شَمَّاعَةُ الأَخْطَاءِ

مَا أَشَدَّ غَرَابَةَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَجَوَّلُونَ فِي حَيَاتِهِم
بَاحِثِينَ عَنْ شَمَّاعَةٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَخْطَاءَهُمْ.
تَارَةً يُلْقُونَ اللَّوْمَ عَلَى الآخَرِينَ،
وَتَارَةً عَلَى القَدَرِ وَالنَّصِيبِ،
وَأُخْرَى عَلَى العَيْنِ وَالحَسَدِ.

يُزَيِّنُونَ أَخْطَاءَهُمْ بِثَوْبٍ مِنَ البَرَاءَةِ،
فَيَخْرُجُونَ أَمْلَاسًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ،
مُتَشَبِّثِينَ بِدَوْرِ "الضَّحِيَّةِ" دَوْمًا،
وَكَأَنَّ الحَيَاةَ لَمْ تُوجَدْ فِيهَا المَسْؤُولِيَّةُ.

يَا رِفَاقُ،
إِنَّهُ الوَهْمُ الكَبِيرُ.
مَنْ عَاشَ فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ المُظْلِمَةِ،
سَيَظَلُّ عَالِقًا فِي مَعْرَكَةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا مَعَ أَخْطَائِهِ. فَالِاعْتِرَافُ بِالخَطَإِ لَيْسَ هَزِيمَةً،
بَلْ هُوَ أَوَّلُ جِسْرٍ نَعْبُرُ بِهِ نَحْوَ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ،
وَأَوَّلُ مَرْحَلَةٍ فِي بِنَاءِ الإِنْسَانِ الحَقِيقِيِّ.

لِنَكُنْ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِنَا؛
فَكَمْ مِنْ غَفْلَةٍ أَوْقَعَتْنَا فِي الإِهْمَالِ،
وَكَمْ مِنْ طِيبَةٍ مُفْرِطَةٍ سَلَّمَتْنَا إِلَى الخَيْبَةِ،
وَكَمْ مِنْ تَهَوُّرٍ أَلْقَى بِنَا فِي حُفْرَةٍ
كُنَّا نَغْضَبُ لَوْ رَأَيْنَا غَيْرَنَا يَسْقُطُ فِيهَا.

تِلْكَ الأَخْطَاءُ لَيْسَتْ عَارًا،
بَلْ مِرْآةٌ تُظْهِرُ حَقِيقَتَنَا،
وَمِطْرَقَةٌ تُشَكِّلُ رُوحَنَا،
وَدَرْسٌ يَطْرُقُ أَبْوَابَ وَعْيِنَا.

لَا بَأْسَ أَنْ نُخْطِئَ؛
فَالأَخْطَاءُ مَدَارِسُ نَتَعَلَّمُ فِيهَا،
وَهِيَ مَنْ يَصْنَعُ مَلَامِحَ نُضْجِنَا.
الخَطَأُ لَيْسَ سِبَّةً وَلَا نَقْصًا،
بَلْ هُوَ الطَّبِيعَةُ البَشَرِيَّةُ بِذَاتِهَا،
وَمَا مِنْ دَرْبٍ نَخْطُوهُ
إِلَّا وَفِيهِ عَثَرَاتٌ تُعَلِّمُنَا كَيْفَ نُحْسِنُ المَسِيرَ.

فَكُلُّ خطا درس وكل دَرْسٍ خُطْوَةٌ،
وَكُلُّ خُطْوَةٍ تُقَرِّبُنَا مِنْ نُسْخَةٍ أَجْمَلَ وَأَصْفَى مِنَّا. فَلْنَتَصَالَحْ مَعَ هَشَاشَتِنَا،
وَلْنَمْتَنَّ لِكُلِّ عَثْرَةٍ جَعَلَتْنَا أَوْعَى وَأَصْلَبَ.

خِتَامًا، تَذَكَّرُوا:
مَا مِنْ إِنْسَانٍ لَمْ يُخْطِئْ،
فَمَنْ لَمْ يَزِلِلْ يَوْمًا لَمْ يَسِرْ.
وَإِنَّ أَجْمَلَ البِدَايَاتِ مَا وُلِدَتْ مِنْ رَحِمِ الأَخْطَاءِ،
فَمِنْ هُنَاكَ تَنْبُتُ بُذُورُ النَّجَاحِ.

ما بَيْنَ خَرِيفٍ عاصِفٍ وَرَبيعٍ مُزْهِرٍ،

تَتَكَشَّفُ لَنا أَسْرارُ الحَياةِ وَتُفْتَضَحُ الوُجوهُ.
فَالْحَياةُ ـ يا رِفاقُ ـ
أَشْبَهُ بِفَصْلِ الخَريفِ؛
حِينَ تَشْتَدُّ رِياحُهُ عَلى شَجَرَةِ صُمُودِنا،
تَتَساقَطُ مِنْ حَوْلِنا أَوْراقُ البَشَرِ
كَما تَتَساقَطُ الأَوْراقُ اليابِسَةُ عَنْ غُصُونِها.

وَكُلَّما ازْدادَتِ العَواصِفُ وَالضُّغوطاتُ،
تَكاثَرَ السّاقِطُونَ،
فَيَنْكَشِفُ مَعْدِنُ النّاسِ،
وَتُظْهِرُ الأَيّامُ حَقِيقَتَهُم،
فَنُدْرِكُ أَنَّ مَن تَمَسَّكْنا بِهِم لَمْ يَكُونُوا
سِوَى أَوْراقِ خَرِيفٍ ذابِلَةٍ، حانَ وَقْتُ سُقوطِها.

وَحِينَ تَفْرُغُ الشَّجَرَةُ مِنْ أَوْراقِها،
تَبْدُو لِلنّاظِرِ حَزِينَةً، هَزِيلَةً،
شَوَّهَتِ الرِّياحُ جَمالَها وَكَسَرَتْ مَلامِحَها.
لَكِنْ ما إِنْ يُطِلَّ الرَّبيعُ،
حَتّى تَبْدَأَ تَنْهَضُ مِنْ جَدِيدٍ،
كَما يَعُودُ المُقاتِلُ إِلى ساحَةِ الوَغى
بَعْدَ أَنْ صَقَلَ سَيْفَهُ وَأَرْهَفَتْهُ المَعارِكُ.

تَنْهَضُ بِأَغْصانٍ خضراء وأوراق نَدِيَّةٍ،
وَقَلْبٍ لَمْ يَزِدْهُ الخَرِيفُ إِلّا صَلابَةً.

أَجَلْ، تَنْبُتُ الأَوْراقُ مِنْ جَدِيدٍ،
لَكِنْ كُلُّ وَرَقَةٍ مِنْها تَحْمِلُ حِكايةَ
تَحَدٍّ وَنُهوضٍ وَاسْتِمْرارٍ،
تَحْجُبُ شَمْسَ اليَأْسِ،
وَتُشْرِقُ بِضِياءِ الأَمَلِ.
وَهَكَذا تَعُودُ الشَّجَرَةُ أَقْوَى مِمّا كانَتْ،
وَأَصْلَبَ مِمّا مَضى؛

فَما سَقَطَ عَنْها لَمْ يَكُنْ إِلّا أَوْراقًا
خانَتْها اللَّحَظاتُ،
وَفَضَحَها الزَّمانُ،
وَأَسْقَطَتْ قِناعَها قَسْوَةُ الأَيّامِ،
فَكانَ سُقوطُها حَتْمًا،
وَذَهابُها إِلى مَهَبِّ الرِّياحِ أَجْدَرَ بِها.

فَيا رِفاق،
نحن الشَّجَرُ، وَالخَريفُ مَوْسِمٌ لا مَفَرَّ
مِنْ مُرورِهِ عَلَيْنا،
وَالأَوْراقُ ما هِيَ إِلّا أَشْخاصٌ تَبَيَّنَتْ مَعادِنُهُم
عِنْدَ هُبوبِ رِياحِ الأَلَمِ.

فَاصْبِروا،
وَكونوا كَالجِذْعِ الصّامِدِ فِي وَجْهِ العَواصِفِ،
يَراهُم يَتَساقَطُونَ واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ،
كَبَيْنَما يَظَلُّ هُوَ واقِفًا، لا يَنْحَني وَلا يَنْهَزِمُ.

قَدْ تُشَوِّهُ العَواصِفُ مَلامِحَهُ،
وَتَفْضَحُ ما أَخْفاهُ مِنْ جِراحٍ،
لَكِنَّهُ لا يَلْبَثُ أَنْ يُزْهِرَ بِرَبيعٍ جَدِيدٍ،
يُورِقُ مِنْ رَحِمِ الأَلَمِ،
وَيُثْمِرُ عَزيمَةً وَقُوَّةً وَتَصْمِيمًا لا يَنْكَسِرُ.
فَالبِناءُ الحَقُّ يَبْدَأُ مِنَ الأَنْقاضِ،
وَالتَّرْمِيمُ الحَقِيقِيُّ يَنْبُعُ مِنْ قَلْبٍ
تَعَلَّمَ كَيْفَ يَنْهَضُ وَحْدَهُ.

إِنَّ خَريفَ الانْكِساراتِ وَخَيْباتِ
الظُّنونِ لَيْسَ نِهايَةً،
بَلْ هُوَ البِدايَةُ؛
بَدايَةُ رَبيعٍ مُزْهِرٍ بِالأُمْنِياتِ،
مُشْرِقٍ بِبِناءِ الذّاتِ،
عامِرٍ بِالأَمانِ وَالسَّلامِ.

الكُوبُ لا يَمْتَلِئُ مِن قَطْرِهِ

الكِتْمَانُ أَثْقَلُ مَا يُحْمِلُهُ الإِنْسَانُ.
أَنْ تَتَظَاهَرَ بِالتَّصَلُّبِ وَالهُدُوءِ،
وَفِي دَاخِلِكَ بَرْكَانٌ يَغْلِي،
كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْهُ حُرُوبٌ صَامِتَةٌ.

التراكمات يا رِفَاقُ،
عِبَارَةٌ عن قَنْبَلَةٍ مَوْقُوتَةٍ،
قَدْ تَنْفَجِرُ بِأَيِّ لَحْظَةٍ،
بِالوَقْتِ الخَطَأ وَلَدَى
الشَّخْصِ الخَطَأ.

مَنْ قالَ إنَّ الكِتْمَانَ هُوَ سهلُ،
فَهُوَ لَمْ يَبْتَلِع جَمْرَةَ الألمِ، وَهُوَ يَبْتَسِمُ،
وَكُلُّ ما فِي دَاخِلِهِ يَحْتَرِقُ صَمْتًا.

تَتَرَاكَمُ المَشَاعِرُ السَّلْبِيَّةُ،
وَالكَلِمَاتُ الجَارِحَةُ،
وَالمَوَاقِفُ وَالخَذْلَانُ المُتَكَرِّرُ شَيْئًا فَشَيْئًا،
حَتَّى تُصْبِحَ حَاجِزًا مَنِيعًا،
يَقِفُ بَيْنَنا وَبَيْنَ العَالَمِ،
بَيْنَ الثِّقَةِ وَالأَمَانِ،
كَأَنَّهُ عَازِلٌ يُفْصِلُنا عن الحياة.

وَيَتَجَلَّى ذلك فِي شُحُوبِ وَجْهِكَ،

وَفِي أَرَقِكَ المُسْتَمِرّ،
فِي نَبْرَةِ صَوْتِكَ المُرْتَفِعَةِ دُونَ سَبَبٍ،
فِي صُدَاعِكَ الدَّائِمِ، وَغَضَبِكَ المُتَفَجِّرِ.

حَتَّى تَأْتِي تِلْكَ اللَّحْظَةُ،
حِينَ يَصِيرُ جِدارُ التَّرَاكُمَاتِ فِي دَاخِلِكَ عَالِيًا،
فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ مَوْقِفًا وَاحِدًا بَسِيطًا،
حَتَّى تَنْفَجِرَ القَنَبْلَةُ المَوْقُوتَةُ دَاخِلَكَ،
وَتُهْدِمُ الجِدارَ، وَيَظْهَرُ مِن خَلْفِهَا شَخْصٌ آخَرُ،
أَكْثَرُ قُوَّةً، أَكْثَرُ صَلَابَةً، أَكْثَرُ خَشُونَةً،

شَخْصٌ يُعِيدُ تَرْتِيبَ الأَوْلَوِيَّاتِ
وَيَضَعُ نَفْسَهُ فِي المُقَدِّمَةِ.

هُنَاكَ سَتُدْرِكُ حِكْمَةَ تِلْكَ المُقَوْلَةِ،
وَكَمِّيَّةَ صِدْقِهَا:
احْذَرُوا التَّرَاكُمَاتِ، فَإِنَّهَا وَاللهِ لا تَرْحَمُ عزّيزاً.

وَخِتَامًا يا رِفَاقُ،
كَمَا أَنَّ الكُوبَ لا يَمْتَلِئُ مِن قَطْرِهِ،
فَإِنَّ الإِنْسَانَ لا يَتَغَيَّرُ لمُجَرَّدِ فِعْلٍ أو كَلِمَةٍ.
إِنَّهَا التَّرَاكُمَاتُ...
إِنَّهَا بَدَايَةُ النِّهَايَاتِ،
وَصَمْتُهَا أَقْوَى مِن أيِّ صَرْخَةٍ،
وَكُلُّ قَلْبٍ مُتْعَبٍ يَحْمِلُهَا يَعْلَمُ ذَلِكَ.

حَكايَا العابرِيَن

عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ،
حَيْثُ تَتَقَاطَعُ الحِكَايَاتُ
وَتَتَنَاثَرُ الأَرْوَاحُ بَيْنَ عَجَلَةِ المَارَّةِ
وَضَجِيجِ السَّيَّارَاتِ،
وَقَفْتُ أُحَدِّقُ فِي الوُجُوهِ العَابِرَةِ،
أَتَأَمَّلُ تَفَاصِيلَهَا المُرْهِقَةَ وَأُحْمِلِقُ فِي صَمْتِهَا الصَّاخِبِ.

لَمْ تَكُنْ وُجُوهًا عَابِرَةً فَحَسْبُ،
بَلْ كَانَتْ كُتُبًا مَفْتُوحَةً،
تَحْمِلُ بَيْنَ سُطُورِهَا قِصَصًا مِنَ التَّعَبِ وَالِانْتِظَارِ وَالرَّجَاءِ.

رَأَيْتُ بَائِعًا مُتَجَوِّلًا، يَمُدُّ صَوْتَهُ المُتْعَبَ قَبْلَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ، يَتَوَسَّلُ العَابِرِينَ أَنْ يَشْتَرُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَيَّ شَيْءٍ،
فَقَدْ تَرَكَ خَلْفَهُ بَيْتًا يَضِجُّ بِأَطْفَالٍ يَتَرَقَّبُونَ صَوْتَ خُطُوَاتِهِ عَائِدًا، مَحْمُولَ اليَدَيْنِ بِالرِّزْقِ، لَا بِالخَيْبَةِ.

وَرَأَيْتُ مُتَسَوِّلَةً تَحْمِلُ عَلَى كَتِفِهَا طِفْلَةً نَاحِلَةً،
تَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ بِعَيْنٍ دَامِعَةٍ، تَتَرَجَّاهُمْ
أَنْ يَرْحَمُوا جُوعَ صَغِيرَتِهَا قَبْلَ أَنْ يَرْحَمُوا جُوعَهَا.

وَعَلَى الجَانِبِ الآخَرِ،
وَقَفَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ يَنْتَظِرُونَ عَمَلًا قَدْ يَأْتِي أَوْ لَا يَأْتِي،
وُجُوهُهُمْ مُنْهَكَةٌ، أَعْيُنُهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِالفَرَاغِ،
وَكَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ القَدَرَ:
"بِمَاذَا سَنَعُودُ إِلَى بُيُوتِنَا هَذَا المَسَاءَ؟ بِخُبْزٍ؟

أَمْ بِآهَةٍ جَدِيدَةٍ؟".

ثُمَّ لَمَحْتُ طِفْلًا لَمْ يَعْرِفْ مِنْ طُفُولَتِهِ سِوَى شَمْسٍ حَارِقَةٍ وَغُبَارِ الطَّرِيقِ،
لَمْ يَحْمِلْ لُعْبَةً وَلَا حَقِيبَةً مَدْرَسِيَّةً،
بَلْ حَمَلَ عُلْبَةَ مَنَادِيلَ صَغِيرَةً،
يُلَوِّحُ بِهَا عِنْدَ زُجَاجِ السَّيَّارَاتِ،
كَأَنَّهُ يُلَوِّحُ بِنِدَاءِ اسْتِغَاثَةٍ خَفِيٍّ: "اشْتَرُوا مِنِّي،
لَعَلَّ فِيكُمْ مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ قَسْوَةِ هَذَا النَّهَارِ".

وَتَأَمَّلْتُ عَامِلَ نَظَافَةٍ،
يَمْسَحُ الأَرْضَ بِضَمِيرٍ لَمْ تَتَلَوَّثْ نَقَاوَتُهُ،
يَعْمَلُ فِي صَمْتٍ مُهَابٍ، فَشَعَرْتُ أَنَّ عَرَقَهُ أَثْمَنُ مِنْ رَوَاتِبَ كَثِيرَةٍ تُصْرَفُ بِلا حَقٍّ.

ثُمَّ رَأَيْتُ طَالِبًا جَامِعِيًّا يَضَعُ كُتُبَهُ جَانِبًا وَيُسْرِعُ نَحْوَ عَمَلٍ شَاقٍّ،
يُحَاوِلُ أَنْ يُقِيمَ جِسْرًا بَيْنَ حُلْمِهِ الكَبِيرِ وَجَيْبِهِ الصَّغِيرِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي:
"أَيُّ عَزِيمَةٍ هَذِهِ الَّتِي تَحْمِلُ أَحْلَامًا فَوْقَ كَتِفٍ أَنْهَكَهُ التَّعَبُ؟".

وَمَرَّ أَمَامِي مُغَسِّلو السَّيَّارَاتِ،
شَبَابٌ تَلْمَعُ عُيُونُهُمْ بِأَحْلَامٍ مُؤَجَّلَةٍ،
يَغْسِلُونَ سَيَّارَاتِ الآخَرِينَ بِأَمَلٍ صَامِتٍ،

وَرُبَّمَا تَمَنَّى بَعْضُهُمْ فِي سِرِّهِ أَنْ يَمْلِكَ يَوْمًا سَيَّارَةً كَهَذِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْتَفُونَ الآنَ بِلَمْسِهَا بِالمَاءِ وَالصَّابُونِ،
كَأَنَّهُمْ يَغْسِلُونَ أَحْلَامَهُمُ المُؤَجَّلَةَ.

وَفِي زَحْمَةِ التَّفْكِيرِ،

دَوَّى صَوْتُ رَجُلِ المُرُورِ وَهُوَ يَصْرُخُ بِالمَارَّةِ لِيُنَظِّمَ الفَوْضَى، فَرَفَعْتُ بَصَرِي إِلَيْهِ،
فَرَأَيْتُهُ يَحْتَرِقُ شَمْسًا وَيَتَصَبَّبُ عَرَقًا،
يَحْمِلُ فَوْقَ كَتِفِهِ مَسْؤُولِيَّةً لَا يَرَاهَا أَحَدٌ،
بِرَاتِبٍ لَا يَكْفِي،
لَكِنَّهُ يُؤَدِّي عَمَلَهُ بِشَرَفٍ وَصَبْرٍ يَلِيقَانِ بِعَظَمَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ.

حِينَئِذٍ
شَعَرْتُ أَنَّ قَلْبِي يَثْقُلُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ،
فَتَنَهَّدْتُ تنهيدة طَوِيلَةً شَقَّتْ رُوحِي شَقًّا،
وَنَظَرْتُ مُجَدَّدًا إِلَى العَابِرِينَ مِنْ حَوْلِي؛

فَرَأَيْتُ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَلَامِحَ الهَمِّ وَالانْكِسَارِ،

وَلَكِنَّ العَجِيبَ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا يَبْتَسِمُونَ لِبَعْضِهِمْ،
مَا زَالُوا يَتَبَادَلُونَ كَلِمَاتِ المُوَاسَاةِ، مَا زَالُوا يُرَدِّدُونَ لِبَعْضِهِمْ: "لَا بَأْسَ"،
كَأَنَّهُمْ يُدَاوُونَ جِرَاحَهُمْ بِالِابْتِسَامِ،
وَيَزْرَعُونَ الصَّبْرَ فِي أَرْوَاحِ بَعْضِهِمْ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ.

هُنَاكَ أَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّحْمَةَ مَا زَالَتْ حَيَّةً،
وَأَنَّ التَّأَلُّفَ يَسْرِي بَيْنَ النَّاسِ رَغْمَ قَسْوَةِ الحَيَاةِ.
بَيْنَ صَاحِبِ السَّيَّارَةِ وَمَنْ يَغْسِلُهَا،
بَيْنَ البَائِعِ المُتَجَوِّلِ وَالمُشْتَرِي،
بَيْنَ المُتَسَوِّلِ وَالعَابِرِ،
بَيْنَ الطَّالِبِ المُكَافِحِ وَالعَامِلِ البَسِيطِ...

الجَمِيعُ يَتَقَاسَمُ الأَلَمَ، وَالجَمِيعُ يَتَوَاسَى بِالرَّحْمَةِ.

ابْتَسَمَتْ فِي وَجْهِي دَمْعَةٌ، وَقُلْتُ:
"كَمْ أَنْتَ عَظِيمٌ يَا وَطَنِي"،
وَتَذَكَّرْتُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ وَصَفَنَا بِأَنَّنَا أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا،
فَرَأَيْتُ كَلَامَهُ مُتَجَسِّدًا أَمَامِي،
لَا فِي كُتُبِ الحَدِيثِ،
بَلْ فِي عُيُونِ النَّاسِ،
فِي مُوَاسَاتِهِمْ لِبَعْضِهِمْ،
فِي إِنْسَانِيَّتِهِمُ الَّتِي تَنْبُضُ وَسْطَ العَوَزِ وَالقَهْرِ.

وَاصَلْتُ المَسِيرَ وَالِامْتِنَانُ يَغْمُرُنِي،
فَهَذَا الوَطَنُ الَّذِي لَمْ يُمْنِحْنَا بَذْخَ المَالِ
وَلَا تَرَفَ العَيْشِ،
مَنَحَنَا مَا هُوَ أَثْمَنُ:
صِدْقَ الإِيمَانِ، وَحَرَارَةَ المَحَبَّةِ،
وَعُمْقَ الرَّحْمَةِ، وَقُوَّةَ التَّجَلُّدِ.

عَلَّمَنَا كَيْفَ نُحِبُّ بَعْضَنَا رَغْمَ الجُوعِ،
وَكَيْفَ نَصْبِرُ رَغْمَ الِانْكِسَارِ،
وَكَيْفَ نَضْحَكُ
وَنَحْنُ نَحْمِلُ فِي صُدُورِنَا جُرُوحًا غَائِرَةً.
عَلَّمَنَا أَنْ نَرَى فِي الفَقْرِ ثَرَاءً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ،
ثَرَاءً بِالمَشَاعِرِ وَالإِنْسَانِيَّةِ.

وَمَا زِلْتُ أُؤْمِنُ أَنَّ وَطَنِي
لَمْ يُعْطِنَا حَيَاةً كَرِيمَةً فِي ظَاهِرِهَا،

لَكِنَّهُ زَرَعَ فِينَا حَيَاةً أَسْمَى فِي بَاطِنِهَا،
حَيَاةً تَتَّسِعُ لِكُلِّ هَذَا الحُزْنِ،
وَلِكُلِّ هَذَا الأَمَلِ،
حَيَاةً لَمْ تَزْرَعْهَا أَوْطَانٌ كَثِيرَةٌ
فِي قُلُوبِ أَبْنَائِهَا.

وَمَنْ هُمُ النّاسُ يا رِفاق؟

أَوَ كُنّا نَظُنُّهُم كَامِلِينَ لا يَمَسُّهُم نَقْصٌ،
حَتّى إذا غَلَبَتْ عَلَيْهِم طَبيعتُهُمُ البَشَرِيّةُ صُدِمْنا،
وَكَأَنَّ الفاجِعَةَ حَلَّتْ عَلى قُلوبِنا دُونَ مُقَدِّماتٍ؟!

لِنَكُنْ صَريحينَ:
إنَّ أَعْظَمَ مَنْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ هُوَ الإنسانُ
الَّذي يَتَوَقَّعُ مِنَ الآخَرينَ جَميلاً كَما يُريدُ هُوَ،
فَإنْ لَمْ يَجِدْهُ، انْكَسَرَ قَلْبُهُ أَشَدَّ الانكِسارِ.
وَذَنْبُهُ أَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ لِلنّاسِ بِنَظْرَةِ الواقِعِ؛
فَلا كَمالَ في بَشَرٍ، وَلا اسْتِثْناءَ في النُّقْصانِ.

إنَّ أَعْظَمَ ذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ الإنسانُ في حَقِّ نَفْسِهِ
هُوَ أَنْ يَجْعَلَ النّاسَ مِحْوَرَ اهْتِمامِهِ،
يَتَرَقَّبُ آرائَهُم،
وَيَخْشَى كَلِماتِهِم،
فَيَتَوَقَّفُ عَنِ الفِعْلِ لا خَوْفاً مِنَ الفَشَلِ لِنَفْسِهِ،
بَلْ خَوْفاً مِمّا سَيُقالُ عَنهُ.
وَاللهِ ما رَأَيْتُ أَغْبى مِمَّنْ قَيَّدوا أَنْفُسَهُم
بِسُجُونِ النّاسِ،

وَما دامُوا يَدُورونَ في دائِرَةِ آرائِهِمْ،
فَلَنْ يَجِدوا لِتِلْكَ الدّائِرَةِ مَخْرَجاً.

وَمَنْ هُمُ النّاسُ يا رِفاق؟

فارغ تَخلوُا حياتُه من الأهداف
فَجَلَسَ يَحْشُو وَقْتَهُ بِالكَلامِ؛
هَذا غاضِبٌ، وَذاكَ حَسودٌ
يَضَعُ في طَريقِكَ أَشْواكاً،
وَآخَرُ جَهولٌ يَتَكَلَّمُ لا يَعِي ما يَقولُ،
فَيَنْثُرُ كَلِماتِهِ هُنا وَهُناكَ
لِيَسْتَجْلِبَ نَظْرَةً أَوِ انْتِباهاً.
فَهَلْ تُرَى تُبالونَ بِأَصْواتٍ هَشَّةٍ
لا تُقَدِّمُ وَلا تُؤَخِّرُ؟
أَفَتَتْرُكُونَ أَحْلامَكُمْ لِأَجْلِهِمْ؟
ذاكَ وَاللهِ هُوَ الجَهْلُ بِعَيْنِهِ.
فَإِيّاكُمْ وَالإِنْصاتَ لِمَنْ يَكْسِرُكُمْ بِكَلِمَةٍ
أَوْ يَسْخَرُ مِنْ حُلْمٍ.
فَمَنْ كانَ هَمُّهُ إِرْضاءَ النّاسِ،
عاشَ لَهُمْ، وَماتَ لَهُمْ، وَخَسِرَ نَفْسَهُ.
وَمَنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ قُبْلَةَ نَظَرِهِ،
فَلَنْ يَجِدَ في طَرِيقِهِ إِلّا الضَّلالَ وَالتِّيْهِ.

وَخِتاماً يا رِفاق:
النّاسُ إِمّا جاهِلٌ يَرى فيكَ ما يَكْرَهُ،
وَإِمّا مُحِبٌّ يَرى فيكَ ما يُحِبُّ،
وَفي كل الحالتَيْنِ سيظلمونك؛
فَلا ذاكَ نصِفُكَ بذكَرِ محاسنكَ
وَذاكَ نصْحكَ بأصَلاحّ مّساؤكّ
وَمَنْ جَعَلَ كَلامَ النّاسِ دَليلَ طَريقِهِ،
فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ اخْتارَ نِهايَةَ كُلِّ جَميلٍ،
وَبِدايَةَ لِكُلِّ قَبيح.

أُتْرُكُوهُم لِلَّهِ...

أُولَئِكَ الَّذِينَ مَرُّوا فَأَضَرُّوا،
وَآذَوْا فَتَفَنَّنُوا فِي أَلْوَانِ الظُّلْمِ وَمَرَارَاتِ الْجِرَاحِ.
أُولَئِكَ الَّذِينَ قَابَلُوا الْخَيْرَ بِشَرٍّ،
وَالْإِحْسَانَ بِجُحُودٍ وَنُكْرَانٍ.

أُتْرُكُوهُم لِلَّهِ،
وَأَعْرِضُوا بِوُجُوهِكُمْ عَنْهُمْ؛
فَإِنَّ مُلَاقَاتَهُمْ لَا تَزِيدُ الْقَلْبَ إِلَّا وَجَعًا،
وَلَا الرُّوحَ إِلَّا قَهْرًا.
أُهْجُرُوهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا،
وَخُذُوا مَا تَبَقَّى مِنْكُمْ، وَامْضُوا بَعِيدًا...
فَإِنَّ أَوَّلَ طَرِيقٍ لِلنَّهْضَةِ وَالْمُعَافَاةِ
هُوَ قَطْعُ الْعَلَاقَاتِ السَّامَّةِ.

وَلَا تُصْغُوا إِلَى مَنْ يَقُولُ:
إِنَّ عَدَمَ الْغُفْرَانِ حِقْدٌ وَنَقْمَةٌ؛
فَذَلِكَ لَمْ يَذُقْ مَرَارَةَ الظُّلْمِ،
وَلَمْ يَبِتْ لَيْلَهُ عَلَى فِرَاشِ الْقَهْرِ،
يَنْزِفُ ضَعْفًا وَيَتَلَظَّى عَجْزًا.
فَأَيُّ حَقٍّ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى مَا لَمْ يَذُقْ؟

ثُمَّ تَنَفَّسُوا عَمِيقًا، وَأَطْفِئُوا جَمْرَ الْحُزْنِ،
وَتَذَكَّرُوا وَعْدَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ:
لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

أَلَا يَكْفِيكُمْ وَعْدُهُ وَقَسَمُهُ؟
وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا يَبِيدُ.

فَيَا رَبِّ...
لَكَ نُسَلِّمُ الْأَمْرَ كُلَّهُ، وَلَكَ نَتْرُكُهُمْ وَقَضَايَانَا.

ثُمَّ اجْمَعُوا شَظَايَا الْقَهْرِ وَالْأَلَمِ،
وَحَوِّلُوهَا وَقُودًا لِبِنَاءِ ذَوَاتِكُمْ، وَسُلَّمًا لِأَحْلَامِكُمْ،
وَمِرْآةً لاكْتِشَافِ أَنْفُسِكُمْ.
اِجْعَلُوهُمْ سَبَبًا فِي بُلُوغِكُمْ أَفْضَلَ نُسَخَكُمْ.

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقَعُوا فِي حَمَاقَةِ الْغُفْرَانِ
حِينَ يَكُونُ الْغُفْرَانُ جَرِيمَةً،
أَوْ فِي شَرَكِ الِانْتِقَامِ فَتُؤْذُوا أَنْفُسَكُمْ
وَتُهْدِرُوا طَاقَاتِكُمْ.
وَلَا تُسَخِّرُوا أَدْعِيَتَكُمْ لَهُمْ،
بَلِ اجْعَلُوهَا كُلَّهَا لَكُمْ، لِقُلُوبِكُمْ، لِأَحْلَامِكُمْ،
وَلِرُوحِكُمُ الْمُثْقَلَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ تُوَدِعُوهُمْ عِنْدَ رَبِّ الْعَدْلِ،
تَأَمَّلُوا الْقَدَرَ وَهُوَ يُبْدِعُ فِي تَصْفِيَةِ الْحِسَابَاتِ.
سَيَرَوْنَ ظُلْمَهُمْ لَكُمْ فِي فَزَعِ نَوْمِهِمْ، وَفِي قَلَقٍ يَأْكُلُ أَفْئِدَتَهُمْ، وَفِي ضِيقٍ يَنْغِّصُ عَلَيْهِمْ لَذَّاتِ الْحَيَاةِ.
سَيَرَوْنَهُ فِي أَعَزِّ وَأَغْلَى مَا يَمْلِكُونَ.

وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورَةِ – يَا رِفَاقُ –
أَنْ تَرَوْا عِقَابَهُمْ عِيَانًا؛

فَإِنَّ أَبْشَعَ الْحُرُوبِ هِيَ الَّتِي يَخُوضُهَا الْإِنْسَانُ
مَعَ نَفْسِهِ فِي غَيَاهِبِ الْمَرَارَةِ وَالْوَحْدَةِ.

فَاتْرُكُوهُمْ لِلَّهِ... وَامْضُوا.
لَا تَتَقَوْقَعُوا حَوْلَ جِرَاحِكُمْ،
وَلَا تَعُودُوا إِلَى مَنْ كَانُوا سَبَبًا فِي إِيلَامِ أَرْوَاحِكُمْ.

اِمْضُوا بَعِيدًا...
فَهُنَاكَ سَتَكُونُ نِهَايَةُ جَبَرُوتِهِمْ بَدَايَةَ إِشْرَاقِكُمْ،
وَغُرُوبُهُمْ بَدَايَةَ شُمُوسِكُمْ.

فَقَطْ...
أُتْرُكُوهُمْ لِلَّهِ، وَامْضُوا.

رِفْقًا يا رِفاق...

طالَما لَسْتَ المَجروحَ، ولَسْتَ المَفجوعَ،
ولَسْتَ أَنْتَ مَن تَنْزِفُ رُوحُهُ وَجَعًا؛
فإيّاكَ أَنْ تَتَدَثَّرَ بِفَلْسَفَةٍ جَوْفاءَ،
أَوْ تُخْفِيَ عَجْزَكَ خَلْفَ قِناعِ التَّجَلُّدِ
وَهَشاشَةِ المَوْقِف.

طالَما لَمْ تَذُقْ مَرارَةَ الابْتِلاءِ،
فَتَأَدَّبْ في حَضْرَةِ المَوْجوعِ.
لا تَزِدْ جِراحَهُ نَزْفًا،
فَأَنْتَ لا تُدْرِكُ ما يَعْتَمِلُ في صَدْرِهِ،
مَهْما بَدا لَكَ السَّبَبُ تافِهًا أَوْ صَغيرًا.
ما تَراهُ في عَيْنَيْكَ سُخْفًا،
قَدْ يَكونُ في قَلْبِ صاحِبِهِ نارًا تُحْرِقُ جَوْفَهُ،
وَسِكِّينًا تُمَزِّقُ رُوحَهُ.

تَأَدَّبْ حينَ تَجْلِسُ أَمامَ قَلْبٍ مُنْهَكٍ أَوْ رُوحٍ مَفْقودَةٍ...
إِنْ لَمْ تُسْعِدْهُ بِيَدٍ تَمْتَدُّ إِلَيْهِ، فَاسْمَعْ أَنينَهُ،
وَكُنْ بَلْسَمًا يُخَفِّفُ عَنْهُ.
إِنْ لَمْ تَحْتَضِنْ خَوْفَهُ،
فَلا تَكُنْ أَنْتَ السَّهْمَ الَّذي يَزيدُ نَزْفَهُ.

مَصائِبُ الأَرْواحِ لا يَفْقَهُها إِلَّا أَصْحابُها.
أَشْياءُ كَثيرَةٌ يَعْجِزُ النّاسُ عَنِ البَوْحِ بِها،
لَكِنَّها تُرى في نَظَراتِهِمُ الكَسيرَةِ،

وَشُرودِهِمُ الطَّويلِ، وَابْتِساماتِهِمُ الباهِتَةِ.
تَسْمَعُها في تَنَهُّداتِهِمُ الثَّقيلَةِ،
حينَ تَضيقُ صُدورُهُمْ
بِما لا تُسْعِفُهُمُ الكَلِماتُ أَنْ تَقولَهُ.

يا رِفاق...
لا تَكونوا كَمَنْ يُفَتِّشُ عَنِ الجِراحِ
لِيَضْغَطَ عَلَيْها أَكْثَرَ.
لَيْسَ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَصْرُخَ: أَنا مُتْعَبٌ حَتّى نَحْتَوِيَهُ.
لا تُثْقِلوا عَلَيْهِ بِطَلَبِ الشَّرْحِ وَالتَّبْريرِ،
وَلا تُحَمِّلُوهُ عِبْءَ البَوْحِ وَلَعْثَمَةِ الحُروفِ.
فَلِكُلٍّ مِنَّا زاوِيَةٌ مُظْلِمَةٌ في داخِلِهِ،
كُنْ لَهُ رَفيقًا حَتّى يُضِيئَها.

كَمْ صادَفْنا وُجوهًا ضاحِكَةً،
وَقُلوبًا قَوِيَّةً تَبْدو وَكَأَنَّها لا تَنْكَسِرُ.
يُجيدونَ التَّجاهُلَ،
وَيُتْقِنونَ الضَّحْكَ بِصَوْتٍ عالٍ،
وَكَأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ لِلأَلَمِ سَبيلاً.
لَكِنْ حينَ تَغوصُ في أَعْماقِهِمْ،
تُدْرِكُ أَنَّ ضَحِكاتِهِمْ تُخْفي قُلوبًا يَعْتَصِرُها الأَلَمُ،
وَأَنَّ قُوَّتَهُمْ ما هِيَ إِلَّا قِناعٌ،
خَلْفَهُ طِفْلٌ صَغيرٌ يَجْثو عَلى
رُكْبَتَيْهِ صارِخًا:
أَحْتاجُ مَنْ أَسْتَنِدُ إِلَيْهِ.

تَجاهُلُهُمْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا هُروبًا مِنْ ماضٍ يُؤْلِمُهُمْ،

وَمُحاوَلَةً لِإبْقاءِ ذاكَ الطِّفْلِ في سُباتٍ عَميقٍ.

فَتَرَفَّقوا يا رِفاق...
لِكُلِّ مِنَّا حِكايَةٌ يُخْفيها عَنِ العُيونِ،
وَلَوْ أَفْصَحَ عَنْها لَبَكى السّامِعونَ دَهْرًا.
حينَ يَقولُ أَحَدُهُمْ:
أَنا مُتْعَبٌ، فَاعْلَموا أَنَّهُ يَفيضُ أَلَمًا؛

إِذْ لا يُعْلِنُ المَرْءُ وَجَعَهُ إِلَّا حينَ يَعْجِزُ
عَنْ احْتِمالِهِ.
وَرُبَّ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ تَخْتَصِرُ في جَوْفِها
أَلْفَ سَطْرٍ.

اعْلَموا أَنَّهُمْ لا يَطْلُبونَ مِنّا إِلَّا أُذُنًا صاغِيَةً،
وَيَدًا حانِيَةً تُرَبِّتُ عَلى أَكْتافِهِمْ بِصِدْقٍ.
لا يُريدونَ دُروسًا، وَلا فَلْسَفَةً،
وَلا مَواعِظَ مُنَمَّقَةً...
يُريدونَ فَقَطْ قَلْبًا رَحيمًا يُخَفِّفُ ثِقَلَ
ما يَحْمِلونَ.

يا رِفاق...
ارْفُقوا بِعابِرِ السَّبيلِ و حافي القدمين،
وَبِالمُتَسَوِّلينَ وَذَوِي الهِمَمِ،
ارْفُقوا بِالمُشَرَّدينَ
الَّذينَ اتَّخَذوا الأَرْصِفَةَ مَأْوًى،
وَبِالباعَةِ المُتَجَوِّلينَ
الَّذينَ يَقْتاتونَ مِنْ فُتاتِ الأَيّامِ،

ارْفُقوا بِالضُّعَفاءِ
الَّذينَ لا يَمْلِكونَ صَوْتًا،
وَبِالأَيْتامِ الَّذينَ لا سَنَدَ لَهُمْ.

كونوا رُحَماءَ
بِأَلْفاظِكُمْ، بِنَظَراتِكُمْ، بِحُضورِكُمْ...
وَلا تَكونوا أَنْتُمْ وَالحَياةُ عَلَيْهِمْ.

فلسفةُ التغيير..

في زحمةِ الحياةِ،
وعلى مفترقاتِ الدروبِ،
حيثُ تتقلّبُ الأيّامُ كما تتقلّبُ الرّياحُ
بين ليلٍ ونهارٍ،
نسمعُ كثيرًا أصواتَ العتابِ،
ونلمحُ نظراتِ اللّومِ،
وتُلقى على مسامعِنا كلمةٌ اعتادها الناسُ:
«تغيّرتَ...»

فلنقفْ هنا قليلًا،
يا رفاقُ...
لماذا نرى التغييرَ جريمةً تُرتكبُ،
أو خطيئةً لا تُغتفرُ؟
أليسَ التغييرُ سنّةً من سُننِ الوجودِ،
وحقيقةً ترويها كلُّ خليّةٍ في أجسادِنا؟

نحنُ نتغيّرُ كما تتغيّرُ الفصولُ:
ربيعٌ يُزهرُ فينا حلمًا جديدًا،
وصيفٌ يشتعلُ في أرواحِنا شغفًا،
وخريفٌ يُعرّي قناعاتٍ ذابلةً،
وشتاءٌ يغسلُنا بمطرِ التجاربِ.

ثقافتُنا، قناعاتُنا، ميولُنا،
وحتّى ملامحُ وجوهِنا،

كلُّها تسيرُ في رحلةِ تحوّلٍ لا تتوقّفُ.
فمن منّا يا رفاقُ ظلّ كما كان بالأمسِ؟
لا أحد... لا أحدَ أبدًا.

فلماذا إذن نهاجمُ غيرَنا إن تغيّرَ،
ونحملُ كلمةَ «تغيّرتَ»
كسهمٍ نرمي به قلوبَ الآخرين؟

التغييرُ ليس عيبًا،
إلّا حين يهبطُ بالروحِ إلى دَرَكٍ أدنى:
حين يُبدّدُ الإيمانَ، ويفسدُ الأخلاقَ،
حين يُطفئُ نورَ القيمِ
ليستبدلَ به ظلامَ ثقافاتٍ رخيصةٍ
لا تمتّ إلى ديننا بصِلةٍ.

أمّا حين يكونُ التغييرُ ارتقاءً،
وصعودًا، ونهوضًا من بين رمادِ الانكسارِ،
فهو طوقُ نجاةٍ،
وهو أبوابٌ تُفتحُ على ضياءٍ جديدٍ.

يا رفاقُ...

تقبّلوا التغييرَ في علاقاتِكم،
في أفكاركم، في ذواتِكم.
فالتغييرُ الذي يُصقِلُ أرواحَنا بالمِحنِ،
ويُعلّمُنا من قسوةِ الظروفِ، هو الأشدُّ وقعًا،
والأعمقُ أثرًا، والأبقى في الذاكرةِ.

وأخيرًا...
التغييرُ ليس نهايةً، بل بدايةً.
ليس هدمًا، بل بناءً.
التغييرُ هو وِلادةٌ جديدةٌ،
وبابٌ يُفضي إلى انطلاقٍ لا يعرفُ الانغلاقَ.

دمُ غزّةَ في قلمي

يَضيقُ بيَ الكونُ حين أعجزُ عن غيرِ الكتابة،
فلا أجدُ في يدي سوى قَلَمٍ يتوهَّمُ أنَّهُ سِكّين،
يخطُّ دمًا لا حِبرًا،
ويشطرُ القلبَ قبلَ الورق.

أيُّ مرارةٍ هذه،
أن تكونَ الكلمةُ نصرتي الوحيدة؟
كشوكةٍ في الحلق، تكتمُ النَّفَس،
بينما تَخنقُها الألسنةُ الصامتة،
وترفضُ الغالبيةُ حتى أن تهمسَ بها.

أهكذا صِرنا؟!لا دينٌ يُحرّكُنا،
ولا عُروبةٌ تُثيرُ غيرتَنا،
بل عارٌ يطاردُنا كظلٍّ أبديٍّ
يلطِّخُ تاريخَنا،
ويمحو من جبيننا ما تبقّى من كرامة.

كم عمرًا نحتاج،
كي نُعيد لأنفسنا بعضًا من إنسانيَّتِنا؟
كم دهرًا نحتاج،
كي ننظرَ في المرايا بلا خِزي؟

أكتبُ... وأسألُ،
فتتكسَّرُ في صدري كلُّ إجابة،

ولا يبقى غيرُ وجعٍ مُقيم،
ودمعةٍ تائهةٍ بين العجز واليأس.

غزَّة...
يا جُرحَنا الذي لا يَندمل،
يا وُجوعَنا المتجذِّرة في الشرايين،
لكِ أبكي يا دُنيا،
ولكِ أن ينوحَ الطيرُ،
ولتُعلَنَ المآذنُ حِدادًا،
ولتغسلَكِ المدامعُ دمعًا بعد دمع.

إنّ أهوالَكِ تُطفئ في أرواحِنا كلَّ لذَّة،
وتُطفئُ أنوارَ الحياة في صدورِنا.

وحتى الكتابة – يا غزَّة – خانَتني،
لم تستطع أن تُنصِفَكِ،
فوضعتُ قلمي جانبًا،
مُطأطِئ الرأس،
مُنحنيَ الجبين،
أستسلمُ لثِقَل العجز.

غزَّة...
يا نزفَ القلب،
ويا أنشودةَ الوجع الأبدي.

أن تكون أنت

يَظَلُّ الإنْسَانُ يَتَخَبَّطُ بَيْنَ الطُّرُقَاتِ،
يَبْحَثُ عَنْ نَفْسِهِ، عَنْ صَوْتِهِ الضَّائِعِ،
وَعَنْ مَلاَمِحِ مَا يُرِيدُ.

قَلَّةٌ هُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مُنْذُ
البداية وَجْهَتَهُمْ وَمَسَارَهُمْ،
أَمَّا الْغَالِبِيَّةُ
فَيَمْضُونَ أَعْمَارَهُمْ فِي رِحْلَةِ بَحْثٍ شَاقَّةٍ.

إِنَّ اِكْتِشَافَ الذَّاتِ لَا يُولَدُ فِي لَحْظَةٍ،
وَلَا يَنْشَأُ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا،
بَلْ هُوَ قَرَارٌ دَاخِلِيٌّ عَمِيقٌ،
يَحْدُثُ حِينَ يَخْتَارُ الْمَرْءُ الْمُوَاجَهَةَ،
أَوْ حِينَ يَبْلُغُ نُقْطَةَ الصِّفْرِ
حَيْثُ لَا مَفَرَّ مِنَ الْحَقِيقَةِ.

وَفِي طَرِيقِ الاِكْتِشَافِ
قَدْ نَقَعُ فِي خطا جَسِيمٍ،
هُوَ "الأَنَا" الْمُتَضَخِّمَةُ،
حِينَ يَسْتَوْلِي الْغُرُورُ عَلَى عُقُولِنَا
فَنَرَى الآخَرِينَ نَاقِصِينَ وَنُلْبِسُ أَنْفُسَنَا ثَوْبَ الْكَمَالِ،
غَيْرَ مُدْرِكِينَ أَنَّ هَذِهِ الأَنَا لَنْ تُطَهَّرَ
إِلَّا بِالأَلَمِ وَالْوَجَعِ،
حِينَ يَرْتَطِمُ الْقَلْبُ بِجِدَارِ الْوَاقِعِ

فَيَنْكَسِرُ بِقَدْرِ مَا يَتَطَهَّرُ.

وَآخَرُونَ يَقَعُونَ فِي خطا مُعَاكِسٍ؛
إِذْ يُسَلِّمُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلشُّعُورِ بِالدُّونِيَّةِ،
يُخَفِّضُونَ تَقْدِيرَهُمْ لِذَوَاتِهِمْ،
وَيَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَا حَوْلَهُمْ صَوَابٌ
وَأَنَّ الْخَطَأَ فِيهِمْ وَحْدَهُمْ،
فَيَرْضَوْنَ بِفُتَاتِ الْحَيَاةِ وَكَأَنَّهُمْ
غَيْرُ جَدِيرِينَ بِغَيْرِهِ.

تَسْأَلُنِي الآنَ: وَمَا الْحَلُّ؟

أَقُولُ لَكَ:
اسْتَمِعْ لِذَلِكَ النَّبْضِ الْخَيِّرِ فِي دَاخِلِكَ،
تَحَسَّسْ مَكَانَهُ جَيِّدًا،
ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قُدُرَاتِكَ،
إِلَى مَا تَجَاوَزْتَهُ مِنْ مِحَنٍ،
وَمَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَصْنَعَهُ.
نَادِ صَبْرَكَ لِيَقِفَ مَعَكَ فِي وَجْهِ الصِّعَابِ،

وَوَازِنْ بَيْنَ مَا تَسْتَحِقُّهُ حَقًّا وَمَا تَتَوَهَّمُهُ نَقْصًا فِيكَ.

اِسْأَلْ نَفْسَكَ:
هَلْ أَنْتَ بِالْفِعْلِ الصُّورَةُ الَّتِي يَتَمَنَّاهَا
مَنْ يَعْرِفُكَ؟
وَإِنْ لَمْ تَكُنْ، فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ أَنْ تُصْبِحَ كَذَلِكَ؟
مَا الَّذِي يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ

تُشْرِقَ مَوَاهِبُكَ،
أَنْ تَتَجَلَّى قُدُرَاتُكَ، ؟
أَنْ يُضِيءَ قَلْبُكَ بِبَصِيصِ نُورِكَ الْخَاصّ؟

قَدِّرْ ذَاتَكَ حَقَّ قَدْرِهَا،
فَلَا تَقْبَلْ لَهَا بِالدُّونِ،
وَلَا تَرْفَعْهَا إِلَى حَدِّ الْغُرُورِ الْمُهْلِكِ.

ثم تَذَكَّرْ أَنَّكَ لَسْتَ هَامِشًا عَلَى هَامِشِ الْحَيَاةِ،
بَلْ أَنْتَ مِحْوَرٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ.
وَلأَجْلِكَ –نَعَمْ لِأَجْلِكَ–
سُخِّرَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ.

حِينَ نَصْنَعُ النُّورَ مِنَ الدَّاخِلِ

كَثِيرَةٌ هِيَ العِبَارَاتُ الَّتِي تَتَرَدَّدُ
عَلَى مَسَامِعِنَا كُلَّ يَوْمٍ:
«لَا أَحَدَ يَفْهَمُنِي»،
«لَا أَحَدَ يَشْعُرُ بِي»،
«أَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ»،
«إِنَّنِي أَتَأَلَّمُ»...
عِبَارَاتٌ تَحْمِلُ بَيْنَ حُرُوفِهَا ظِلَالَ الحُزْنِ،
وَانْطِفَاءَ الرُّوحِ، وَغُرْبَتَهَا.

وَلَكِنْ، يَا رِفَاقُ، لِمَاذَا تَتَكَرَّرُ هَذِهِ الكَلِمَاتُ؟
أَهُوَ حَقًّا لِأَنَّنَا لَا نَفْهَمُ بَعْضَنَا؟
أَمْ لِأَنَّ البَعْضَ قَدِ اسْتَسَاغَ دَوْرَ الضَّحِيَّةِ،
حَتَّى غَدَا لَا يَرَى ذَاتَهُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ الأَلَمِ؟
وَكَأَنَّ المُعَانَاةَ صَارَتْ لَهُ هُوِيَّةً،
وَالحُزْنُ وَطَنًا يُقِيمُ فِيهِ.

لَقَدْ قَرَأْتُ يَوْمًا مَقُولَةً تَقُولُ: «السَّعَادَةُ قَرَارٌ».
وَصِدْقًا، هِيَ كَذَلِكَ؛
لَيْسَتْ نَصِيبًا يُوَزَّعُ،
بَلِ اخْتِيَارًا يَصْنَعُهُ الإِنسَانُ.
كُنْ جَمِيلًا، يَبْهُرْكَ جَمَالُ الحَيَاةِ،
وَلَا تَدَعْ مَوْقِفًا عَابِرًا
يَحْجُبْ عَنْكَ أَلْفَ مَوْقِفٍ آخَرَ مَلِيءٍ بِالنُّورِ.

إنْ غَابَتْ نِعْمَةٌ،
فَلَا تَدَعْ غِيَابَهَا يَسْرِقْ بَرِيقَ النِّعَمِ
الأُخْرَى مِنْ عَيْنَيْكَ.
لَا تُحْصِرْ نَفْسَكَ فِي قَوْقَعَةِ الأَلَمِ،
وَلَا تَنْغَلِقْ عَلَى نِصْفِ الكُوبِ الفَارِغِ؛
فَالحَيَاةُ أَوْسَعُ مِنْ حُزْنِكَ،
وَأَجْمَلُ مِنْ جُرْحِكَ.
أَوْقِدْ مَصَابِيحَ الأَمَلِ، وَافْتَحْ أَبْوَابَ الفَرَحِ،
وَامْضِ فِي دَرْبِكَ.

وَاعْلَمُوا، يَا رِفَاقُ،
أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ نُورًا،
فَلَنْ تُضِيئَهُ أَنْوَارُ الكَوْنِ كُلُّهَا.
وَمَنْ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ لِنَفْسِهِ،
فَلَنْ يَنْتَشِلَهُ أَحَدٌ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ.

اِرْبُتْ عَلَى كَتِفِكَ،
وَاجْمَعْ شَتَاتَكَ،
وَاضْمِدْ جِرَاحَكَ،
وَانْهَضْ؛ فَالجُلُوسُ لِلْجُبَنَاءِ،

وَنَحْنُ خُلِقْنَا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ
عَلَى فِرَاشِ الهَزِيمَةِ.
نَحْنُ مَنْ نُعْطِي الحَيَاةَ قُوَّتَهَا،
وَلَسْنَا نَحْنُ مَنْ نَسْلُبُهَا المَعْنَى.

وَخِتَامًا،

حِينَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ سَعَادَتَكَ انْتَهَتْ بِمَوْقِفٍ قَاسٍ،
تَذَكَّرْ:
بِيَدِكَ وَحْدَكَ أَنْ تَصْنَعَ سَعَادَةً جَدِيدَةً،
سَعَادَةً تَجْعَلُكَ تُدْرِكُ أَنَّ مَا قَبْلَهَا
لَمْ يَكُنْ سِوَى سَرَابٍ.

خُذِ النَّصيحَةَ مِن فَمِ المُخطِئِ

مِن أَكبَرِ أَوهامِنا أَنَّنا لا نُصغي للنَّصيحَةِ
إِلَّا إذا جاءَتْ مِن فَمٍ طاهِرٍ مِن العَيبِ،
فَنَبحَثُ عَنِ الكَمالِ في النّاصِحِ
قَبلَ أَن نَبحَثَ عَن صِدقِ النَّصيحَةِ.
فَإِذا ما خَرَجَتِ الكَلِمَةُ مِن شَخصٍ
يَحمِلُ في ذاتِهِ ما يُحَذِّرُنا مِنهُ،
أَسرَعنا إِلى صَدِّها،
وكَأَنَّنا نَضعُ الحَقَّ في ميزانِ العُيوبِ
لا في ميزانِ الحِكمَةِ.

أَمَا سَمِعتُم قَولَ الحكمة:
«سَلِ المُجرِّبَ ولا تَسَلِ الطَّبيبَ»؟
إِنَّ الَّذي وَقَعَ في الخطاء،
وعاشَ تَفاصيلَهُ، وتَجرَّعَ مَرارتَهُ،
هُوَ الأَصدَقُ والأَعمَقُ إِدراكًا لمَعناهُ؛
لأَنَّهُ لَم يَقرَأْ عَنهُ في كِتابٍ،
بَل حَمَلَهُ في قَلبِهِ وجَسَدِهِ،
وعَرَفَ وَجَعَهُ، وذاقَ نَدَمَهُ،
فَصارَ في نَصيحَتِهِ أَثَرُ التَّجرِبَةِ
لا بُرودَةُ التَّنظيرِ.

تَأَمَّلوا هذا المَشهَدَ:
كَأسُ ماءٍ صافٍ في ظاهِرِهِ،
لَكِنَّ السُّمَّ يَختَبِئُ في أَعماقِهِ.

رَجُلٌ شَرِبَ مِنهُ، فَمَزَّقَ السُّمُّ أَحشاءَهُ أَلَمًا،
وآخَرُ لَم يَذُقْ مِنهُ قَطُّ، وإنَّما سَمِعَ عَن خَطَرِهِ.
حينَ تَبحَثُ عَنِ الحَقِّ،
أَيُّهُما أصدَقُ في وَصفِ طَعمِ السُّمِّ وَوَطأَةِ أَلَمِهِ؟

إنَّهُ بِلا شَكٍّ مَن شَرِبَ وعاشَ الوَجَعَ،
لا مَنِ اكتَفَى بِالنَّظَرِ.

يا رِفاقُ...
لا تُحاكِموا النَّصيحَةَ إلى حالِ قائِلِها،
فَرُبَّ كَلِمَةٍ صادِقَةٍ خَرَجَتْ مِن قَلبٍ
مُثقَلٍ بِالذُّنوبِ،
كانَت سَبَبًا في نَجاةِ قَلبٍ آخَرَ.
النَّصيحَةُ الصّادِقَةُ مِنَ المُخطِئِ
قَد تَكونُ آخِرَ قَطرَةٍ في كَأسِ خَطَئِهِ،
وأَوَّلَ قَطرَةٍ في نَبعِ رُشدِكَ.

فَاستَمِع...
فَقَد يَفتَحُ اللهُ عَلى لِسانِ المُخطِئِ
ما يُغلِقُهُ عَن أَفواهِ المُتَكَبِّرينَ.

ضَعْ حُدودَك

يا رِفاقَ الرُّوحِ...
إنَّ للحُدودِ قُدسيَّةً تُحافِظُ على قَلبِكَ،
وَتَصونُ روحَكَ
مِنَ التَّبعثُرِ في كُلِّ عَلاقَةٍ أَو تَعامُلٍ.
فلا كَرامَةَ تُحفَظُ إلّا إذا عَرَفتَ مَتى
تَشتَدُّ صَرامَتُكَ،
وَمَتى تُطلِقُ ابتِسامَتَكَ.

مَن عاشَ بلا حُدودٍ،
كانَ كَبَيتٍ مَفتوحٍ دُونَ بابٍ،
يَدخُلُهُ الغَريبُ وَالقَريبُ،
الطَّيِّبُ وَالخَبيثُ، حَتّى يَغدو مَسرَحًا لِتَجارِبِ الآخَرينَ.

إنَّ الحُدودَ لَيسَت قُيودًا،
بَل هِيَ هَيبَةٌ تُلزِمُ الآخَرينَ بالاحترامِ،
وَسِياجٌ يَحفَظُ لَكَ الحَقَّ وَالخصوصيَّةَ.

لا تَكُن كَالكِتابِ المَفتوحِ...
يَعرِفُ كُلُّ مَن مَرَّ صَفَحاتِكَ.
اجعَل لِنَفسِكَ غُموضًا جَميلًا،
وَأَسرارًا صَغيرَةً لا يَعرِفُها سِواكَ.
فالخُصوصِيَّةُ قُوَّةٌ، وَحِفظُ السِّرِّ عِزَّةٌ.

تَذكَّروا يا رِفاقَ:

النّاجِحُ الحَقُّ لا يُكثِرُ الكَلامَ عَن نَجاحِهِ،
بَل يَدَعُ نَجاحَهُ يَتَحدَّثُ عَنهُ.
أَمَّا مَن لَم يَبلُغْهُ، فَهُوَ مَن يُرهِقُ نَفسَهُ بالحديثِ الدّائِمِ عَنهُ.

يارفاق..
أَنتُم الوَحيدونَ مَن تُقرِّرونَ مَقامَكُم؛
فَلا تَسمَحوا لِأَحَدٍ أَن يَستَصغِرَكُم،
وَلا لِمُتَمادٍ أَن يَتَمادى.
وتعلموُا الفرق بيّن التّسامُحُ والسّمَاح

فَالتَّسامُحُ مَعَ المُسيءِ شَرفُ الكِرامِ،
أَمّا السَّماحُ لِه أن يُعيدَ الإساءةَ فَهُوَ
ضَعفٌ يَكسِرُ الرُّوحَ.

وَلا تَنسَوا:
"مَقامُكَ حَيثُ أَقَمتَ نَفسَكَ،
لا حَيثُ أَقَامَكَ النّاسُ.
" فاخْتَر بِحِكمَةٍ المَقامَ الَّذي تُريدُ أن تَسكُنَهُ.

خِتامًا...
ضَبطُ الحُدودِ لَيسَ قَسوَةً، بَل حُبٌّ لِنَفسِكَ،
وَحِرصٌ عَلى سَلامِكَ الدّاخِلِيّ.
وَبِدايَةُ وَضعِ الحُدودِ هِيَ نِهايَةُ كُلِّ أَذى.

نِهايَةُ الفَحمِ هِيَ بَدايَةُ الأَلماس

لَيسَ كُلُّ اِنطِفاءٍ يَعني النِّهايَةَ،
وَلَيسَ كُلُّ خُسارَةٍ سُقوطًا أَبَدِيًّا.
فَثَمَّةَ أَوجاعٌ تُوقِظُ فِينَا أَشياءَ كُنَّا نَجهَلُها،
وَثَمَّةَ خُساراتٌ تَدفعُنا لِنَحصُدَ خَيرًا مِنهَا،
وَفَشلٌ يَكونُ هُوَ الدَّافعَ الَّذي يَجعلُنا نَخطُو نَحوَ الأَمام أَلفَ خُطوَةٍ.

المَراحِلُ الَّتي أَظلَمَتنا بِوَجعِها،
هِيَ نَفسُها الَّتي بَنَينا مِن دَمعِ العُيونِ
نُورًا يُضيءُ الدَّربَ.
وَالأَلَمُ الَّذي كَسَرَ أَرواحَنا،
هُوَ نَفسُهُ مَن صَنَعَ فِينَا هذِهِ القُوَّةَ
الَّتي نَحمِلُها.

كُلُّ وَجعٍ عِشنا صَداهُ،
نَراهُ اليَومَ يَتَجَسَّدُ فِي شَكلِ
نَجاحَاتٍ وَانتصَاراتٍ لا تُهزَمُ.
يَا رِفاقَ الرُّوحِ،
لَيسَت نِهايَةُ الأَشياءِ زَوالَها؛
فَكَم مِن بَدايَةٍ لا تُولَدُ إِلَّا عِندَ حَافَّةِ النِّهايَةِ.
فَلَا تَنسَوا..
إِنَّ نِهايَةَ الفَحمِ هِيَ بَدايَةُ الأَلماسِ،
وَشَتَّانَ بَينَ ذاكَ وَهذا.
فاصبِروا،
فَمِن رُكامِ النِّهاياتِ تُصنَعُ أَثْمَنُ البِداياتِ.

مَلاذُ الرُّوحِ

ذَاكَ الَّذِي آمَنَ بِي حِينَ غَابَ عَنِّي
الإيمَانُ بِنفْسِي،
وذَاكَ الَّذِي أَضَاءَ فِي دَاخِلِي نُورًا
حِينَ دَاهَمَنِي الظّلامُ،

كَرَّرَ مِرَارًا وَتِكرارًا: «
أَنتَ تَسْتَطِيعُ»،
بَيْنَمَا كُنْتُ أُرَدِّدُ بِلا حَوْلٍ وَلا قُوَّةٍ:
«لا أَسْتَطِيعُ».

مَن وَثِقَ بِي فِي أَيّامٍ تَوالَتْ عَلَيْهَا الخَيَابَاتُ،
وَمَن رَأَى فِيَّ العَظَمَةَ حِينَ كُنْتُ
أَرَى نَفْسِي صَغِيرًا،
وَمَن اسْتَمَعَ لِكَلَامِي بِأُذُنٍ صَاغِيَةٍ،
فَجَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ لِي لا تُهْمَلُ،
وَكُلَّ طَلَبٍ لِي لا يُرَدُّ،

لَمْ يَكُنْ شيئاً عَادِيًا،
بَلْ كَانَ القُوَّةَ حِينَ ضَعُفْتُ،
وَالمَلاذَ حِينَ خِفْتُ،
وَالسَّنَدَ حِينَ انْهَارَتْ قُوَايَ.

فَوَاللَّهِ، لا كَلَامٌ يُنصِفُهُ،
وَلا حُبٌّ يُقَاسُ بِهِ،

وَلا شَيْءٌ يُعَوِّضُهُ...

عَنِ العَائِلَةِ أتَحدثُ يارِفاق،

هِيَ المِيناءُ الآمِنُ
حِينَ تَعْصِفُ بِنَا رِيَاحُ الحَيَاةِ،
وَهِيَ النُّورُ الَّذِي يُوقِظُنَا
حِينَ يَخِيمُ الظّلامُ عَلَى أَرْوَاحِنَا.

هِيَ الحِضْنُ الدَّافِئُ
الَّذِي يَلْتَقِطُنَا بَعْدَ كُلِّ سُقُوطٍ،
وَهِيَ الصَّوْتُ الَّذِي يُذَكِّرُنَا
بِقُدْرَتِنَا عَلَى النُّهُوضِ رَغْمَ كُلِّ العَثَرَاتِ،

فِي حُضُورِهَا نَشْعُرُ أَنَّ قُلُوبَنَا لَمْ تُخْلَقْ لِلْيَأْسِ،
بَلْ لِلْأَمَلِ،
وَأَنَّ الحَيَاةَ، مَهْمَا ثَقُلَتْ،
تَظَلُّ تَسْتَحِقُّ أَنْ نَعِيشَهَا
بِابْتِسَامَةٍ وَصَبْرٍ وَعَزْمٍ.

الَعائِلة "فيّ جوفِها نِهَاية كُل أَلمٍ،
وبِدايّة كُلّ أمَلٍ"

هٰذِهِ الَّتِـي أَفْزَعْتَـكَ..

تمسَكتِ الأُم بِولدها جيداً
مَرَّ الْعُمُرُ سَرِيعًا، كَغَمَامَةٍ عَابِرَةٍ
فِي سَمَاءٍ حَارِقَةٍ،
وَكَأَنَّهُ سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ تَلَاعَبَتْ
بِهَا الرِّيَاحُ وَالشَّمْسُ الْقَوِيَّةُ.

مَرَّ الْعُمُرُ وَأَخَذَ مِنْهَا الْكَثِيرَ...
نَعَمْ، مَرَّ كَسَاعة،
لَكِنَّ كُلَّ سَاعَةٍ كَانَتْ أَثْقَلَ مِنْ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ،
تَقْطُرُ وَجَعًا... وَتُزْهِرُ صَمْتًا.

جَلَسَتْ تَتَأَمَّلُ ولَدهَا بِعَيْنَيْنِ مُتْعَبَتَيْنِ،
لَكِنَّهُمَا ظَلَّتَا تَتَجَدَّدَانِ كَنَبْعٍ عَنِيدٍ
فِي صَحْرَاءَ قَاسِيَةٍ،
ثُمَّ تَسَاءَلَتْ مَطُوَّلًا:

"أيُ نُكرانِ للجميل هذا...
أَأَغْدُو وَحِيدَةً بَعْدَ كُلِّ هٰذَا الْجُهْدِ؟
هَلْ كُنْتُ أَنَا السَّبَبَ فِيمَا آلَ إِلَيْهِ مَصِيرِي؟
أَمْ أَنَّ فَرْطَ اهْتِمَامِي كَانَ قَيْدًا خَفِيًّا،
جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِالِاخْتِنَاقِ بَدَلَ أَنْ يَشْعُرَ بِالأَمَانِ؟"

وَاصَلَتِ النَّظَرَ فِي وَجْهِهِ طَوِيلًا،
وَكَأَنَّهَا تَبْحَثُ فِيهِ عَنْ آخِرِ بَقَايَا الْحَنَانِ،

فَلَمْ تَجِدْ سِوَى جِدَارٍ بَارِدٍ.

وَحِينَ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَومَهِ،
صَرَخَ فَجْأَةً قَائِلًا:
"أَفْزَعْتِنِي هٰذِهِ!"

ثُمَّ نَهَضَ مُسْرِعًا كَمَنْ يَفِرُّ مِنْ نَفْسِهِ،
مُتَّجِهًا نَحْوَ عَمَلِهِ.
كَانَتْ كَلِمَاتُهُ تِلْكَ رَصَاصَةً أَخِيرَةً،
اخْتَرَقَتْ جَسَدًا مُتَجَعِّدًا مِنْ تَعَبِ السِّنِينَ،
وَأَطْفَأَتْ آخِرَ شُعْلَةٍ فِي قَلْبٍ مُثْقَلٍ بالخذلان.

تَنَفَّسْتُ بِعُمْقٍ،
فَإِذَا بِالنَّفَسِ يَخْتَلِطُ بِالْعَبَرَاتِ،
وَفَاضَتْ دَمْعَةٌ وَاحِدَةٌ...
وَأَيُّ دَمْعَةٍ هٰذِهِ؟

دَمْعَةٌ حَمَلَتْ فِي طَيَّاتِهَا:
أَلْفَ كَسْرَةٍ،
وَأَلْفَ حُزْنٍ،
وَأَلْفَ خَيْبَةٍ.

دَمْعَةٌ انْسَكَبَتْ كَأَنَّهَا نَهْرٌ صَغِيرٌ،
يَخْتَزِلُ أَعْمَارًا مِنَ الانْكِسَارِ.

تَوَسَّدْتُ فِرَاشَهُ،
وَكُنتُ تُحَدِّقُ فِي سَقْفِ الْغُرْفَةِ بِعُيُونٍ مُثْقَلَةٍ بِالسُّؤَالِ:

مَا كَانَ خَطَئِي؟
وَمَا هُوَ ذَنْبِي؟

هَلْ أَخْطَأْتُ حِينَ صَدَّقْتُ
أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا مَنَحَ كُلَّ مَا فِيهِ،
عَادَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْوَفَاءِ؟

أَمْسَكْت بِوَرَقَةٍ صَغِيرَةٍ،
و كَتَبْت عَلَيْهَا بِيَدٍ مُرْتَجِفَةٍ:
"هٰذِهِ الَّتِي أَفْزَعْتَكَ، سَتُذِيبُكَ الْحَيَاةُ برَحِيلِهَا..."

ثُمَّ تنهدتْ تَنْهِيدَةُ الانْكِسَارِ
وعَلَى رُوحِها أَثَرًا لَا يُمْحَى،
وَفَارَقْت الْحَيَاةَ ..
بِصَمْتٍ يُشْبِهُ الْغِيَابَ الأَبَدِيَّ.

وَهَا هُوَ الآنَ، مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ،
يَتَوَسَّدُ فِرَاشَهُ ذَاتَهُ،
وَيُحَدِّقُ فِي السَّقْفِ نَفْسِهِ،
تَتَرَدَّدُ فِي دَاخِلِهِ أَسْئِلَةٌ لَا تَنْطَفِئُ:

أَيُّ أَمَانٍ خَبَّأَتْهُ تِلْكَ الَّتِي رَحَلَتْ؟
وَأَيُّ سِحْرٍ جَعَلَهَا مَرْغُوبَةً فَقَطْ
حِينَ غَابَتْ،
لِيَبْقَى هُوَ يَطْلُبُ حُضُورَهَا...
حَتَّى يَمُوتَ؟

الإنّـاءُ المثقّـوبَ

يَجِبُ أَنْ نَعِي وَنَتَقَبَّل أَنَّ البَشَرَ كَالْأَرْضِ،
نَجْنِي فِيهِم مَا زَرَعْنَاهُ مِنْ خَيْرٍ أَو شَرّ.

وَلَكِن، يَا رِفَاق،
لِنَكُنْ مُدّركَينَ بِأَنَّ هُنَاكَ أَرَاضٍ صَخْرِيَّةٌ،
لَا تُزْرَعُ، كَبَعْضِ النُّفُوسِ؛
مَهْمَا بَذَلْتَ مِنْ حُبٍّ وَإِحْسَانٍ،
تَبْقَى قَاسِيَّةً، لَئِيمَةً، جَاحِدَةً.
فَلَا تَنْصَدِمْ وَلَا تُلِمَّ نَفْسَكَ،
فَأَنْتَ لَسْتَ مُذْنِبًا وَلَا عَلَى خَطَأٍ،

إِنَّمَا العَيْبُ فِيهِم، فَهُمْ الإِنَاءُ المُثَقَّوبُ،
مَهْمَا صَبَبْتَ فِيهِ مِنْ حُبٍّ، لَا يَمْتَلِئُ.

أسيّـرَ التّصنـَع

إلــى أُولئِكَ الَّذِينَ أَضاعُوا ذَواتِهِم فِي مَسارِحِ التَّصنُّعِ،
وَفَقَدوا الثِّقَةَ بِأَنفُسِهِم حَتّى
باتُوا أَسارَى لِأَقنِعَةٍ زائِفَة،

إِلَى مَن يَدَّعُونَ المِثالِيَّةَ
وَيَرتَدُونَ ثَوبَ النَّقاءِ تَكلُّفًا،
وَيُثقِلونَ الحُروفَ بِرِياءِ المَظاهِر،
أَلا تَسأَلونَ أَنفُسَكُم: أَلَم تَتعَبوا؟

كُونوا بُسَطاءَ يَا رِفاق،
فَفِي البَساطَةِ سَكينَة،
وَفِي الصِّدقِ راحَة،
أَمّا التَّكلُّفُ فَنُفور،
وَالتَّمثيلُ عَناءٌ وَشَقاء.

مَا أَظلَمَ ذاكَ الَّذِي يَغتَرِفُ مِن حَياةٍ
لَيسَت حَياتَه،
وَيَتَكلَّمُ بِلِسانٍ لَيسَ لِسانَه؛
يَشُدُّ نَفسَهُ بِحِبالٍ مِنَ الوَهمِ
وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مَحورُ الإعجاب،
وَمَا هُوَ إِلّا لَمحَةُ تَعجُّبٍ عابِرَة.

كُن أَنتَ،
وَلَا تَخشَ أَن تُظهِرَ مَلامِحَكَ كَمَا هِي.

اعتَزَّ بِذاتِكَ،
فَجَمالُكَ يَسكُنُ فِي اختِلافِكَ،
لَا فِي أَن تُصبِحَ نُسخَةً باهِتَةً مِن غَيرِكَ.

كُونوا بُسَطاء يارفاق...
فَفِي البَساطَةِ سِحرٌ لَا يُدرَك،
وَجاذِبيَّةٌ لَا تُشبِهُها جاذِبيَّة.

فَليَكُن صِدقُكُم مَلاذَكُم،
وَبَساطَتُكُم زينَتَكُم،
فَمَا أَبهى الإنسانَ حِينَ يَكُونُ نَفسَهُ،
لَا مَسخًا لِغَيرِه...
هُناكَ فَقَط تُخلَقُ الجاذِبيَّةُ،
وَيُزهِرُ الجَمال.

مَرْحَبًا يا رِفاقُ

ثَمَّةَ جِراحٌ لا تُواسِيها الكَلِماتُ،
وآلامٌ لا تُضَمِّدُها المُواسَاةُ.

في طَريقِ الحَياةِ، نَمُرُّ جَميعًا بمُنحدَراتٍ عاتيةٍ،
تَسحَقُنا خَساراتُها،
وتَختبِرُ قُدرتَنا على الثَّباتِ.
ومع ذلكَ...
عَلَينا أن نُواصِلَ المَسيرَ،
فالوُقوفُ يَعني الغَرَقَ في مُنتصَفِ الألَمِ،
والتَّراجُعُ يَعني العَودَةَ مُثْقَلينَ بِخَيبَةِ الطَّريقِ كُلِّه.

يا رَفيقَ الرُّوحِ
إنْ وَقَفتَ، أوقَفتَ مَن يَسيرُ خَلفَكَ...
أهلُكَ، عائلَتُكَ، وكُلُّ مَن يَعتَمِدُ علَيكَ.
ونَفسُكَ أوَّلُهُم، وأثمنُهُم.

وإنْ تَراجَعتَ، عُدتَ بالأسى والضَّعفِ،
تَجُرُّ مَعَك تَعَبَ الطَّريقِ وخَطَأَ الخُطوَةِ.

لَسنا مَلائِكَةً، كَي لا نَقَعَ
ولَسنا صُخورًا، كَي لا نَحزَنَ.
خُذْ وَقتَكَ لِتَجاوُزِ المُنحدَرِ،
واسْمِهِ استِراحَةَ مُحارِبٍ.

الحُزنُ ضَيفٌ، فأَحسِنْ ضِيافَتَهُ،
لَكِنْ... إيّاكَ أنْ تَمنَحَهُ سَكَنَ القَلبِ.
هُو كقُنبُلَةٍ في يَدِكَ،
إنْ شَدَدتَ قَبضتَكَ علَيها أو أرخَيتَها فَجأَةً...
انفَجَرَت بِكَ.

يا رِفاقُ
لِتَجاوُزِ أيِّ مُنحدَرٍ، تَيَقَّنوا:
أنَّ اللهَ ما وَضَعَكم فيهِ إلّا لِخَيرٍ تَجهَلونَهُ،
وما حَمَّلَكم إلّا لِأَنَّهُ يَعلَمُ أنَّكم أهلٌ لَهُ.

اللهُ لا يُغلِقُ الأبوابَ كُلَّها إلّا لِيَفتَحَ أمامَكم بابَهُ،
البابَ الوَحيدَ الَّذي لا يُغلَقُ.
فَلِماذا نَلجَأُ إلَيهِ آخِرًا...
بَينَما هُوَ البِدايَةُ والنَّجاةُ؟

خِتامًا...
بَعدَ كُلِّ اِنحِدارٍ، سَتُشرقُ شَمسٌ جَديدةٌ،
وسَيُولَدُ فيكَ شَخصٌ جَديدٌ:
أكثَرُ صَلابَةً، أعمَقُ وَعيًا، وأشَدُّ قُوَّةً.
والقَرارُ لَكَ...
هَل سَتَبقَى في المُنحدَر؟
هَل سَترفَعُ الرَّايَةَ البَيضاءَ وتُعلِنُ الهَزيمَةَ؟
أم سَتَنهَضُ، مُتَحَدِّيًا الطَّريقَ،
وتُحوّلُ نُقطَةَ النِّهايَةِ... إلى قَوسَينِ لِبِدايَةٍ جَديدةٍ؟

وَلتَكُنْ هذِهِ... بِدايَةَ النِّهايَةِ.

رِياحُ الحَياةِ لَنْ تَمنَعَكَ مِنَ الوُصولِ

ضَعْ هَدَفَكَ أَمامَ عَيْنَيْكَ،
وَسِرْ نَحْوَهُ بِثَباتٍ وَإِصْرارٍ.
سَتَعْصِفُ بِكَ رياحُ الحَياةِ،
فَتَميلُ بِكَ يَمينًا وَشِمالًا،
وَلَكِنْ لابَأْسَ...
عُدْ وَصَحِّحِ المَسارَ بِقَلْبٍ لا يَلينُ.

سَتَعْتَرِضُكَ حِجارَةُ الطَّريقِ،
وَتَصْعَطُكَ الظُّروفُ،
وَتُحاصِرُكَ الإِمْكانِيّاتُ المَحدودَةُ،
وَلَكِنْ لا تَيْأَسْ...
فَهَدَفُكَ يَسْتَحِقُّ كُلَّ خُطْوَةٍ.

سَتَهْبِطُ في مُنْحَدَراتِ الحَياةِ،
وَتَسْمَعُ أَصْواتَ المُحبِطينَ،
وَتَرْشُقُكَ كَلِماتٌ كالسِّهامِ،
وَلَكِنْ لا تَنْطَفِئْ...
خُذْ اِسْتِراحَةَ المُحارِبِ،
رَتِّبْ عَلى كَتِفِكَ، وَاِنْهَضْ مِنْ جَديدٍ.

سَتَصِلُ — وَلَوْ كُنْتَ مُثْقَلَ الجِراحِ —
وَلَكِنْ وَاللهِ،
إِنَّ لَذَّةَ الوُصولِ ستُرَمِّمُكَ،
فَلا بَأْسَ، وَلا يَأْسَ، وَلا اِنْطِفاءَ.

السَّلامُ علَينا...

السلامُ علَى قلوبٍ أرهقها الخُذلانُ،
فظلَّت تَخفقُ رغمَ الجِراح.
وعلَى أعينٍ انكسرتْ مرارًا،
لكنَّها ما زالت تَفتّشُ عن نورٍ بعيد.
وعلَى أرواحٍ مُطفأةٍ،
تنتظِرُ قبسًا يُعيدُ إليها وهجَ الحياة.
وعلَى شغَفٍ غابَ عَنّا، كأنَّهُ غُربةٌ تسكُنُ فينا.
وعلَى جُروحٍ ما برِحتْ تَنزفُ، تُذكِّرُنا أنَّنا أحياء.
السَّلامُ علَى نَومٍ يَهجُرُنا حين نَشتاقُ إليه.
وعلَى فكرٍ يَسردُ أحزانَه
كأنَّهُ كِتابٌ لا يَنتهي.
وعلَى نَفوسٍ تَتلقّى الصَّدماتِ بقلوبٍ صابرةٍ،
كأنَّها رُوحُ رحمةٍ خفيّة.
السَّلامُ علَينا مِن غيابِنا عن أنفسِنا...
ومِن كِتمانٍ يَنهَشُ أحشاءَنا في صمتٍ قاسٍ.
ومِن قُوى زائفةٍ لا تَخذلُنا إلّا حين نَكونُ وحدَنا.
ومِن شُرودٍ يَسحَبُنا،
بَينَ لحظةٍ وأُخرى،
إلى قاعِ اليأس.
السَّلامُ علَينا حين نتجلد ونصبر، ونَسندُ غيرَنا،
ونحنُ في أمسِّ الحاجةِ لِمَن يَجبرُ كُسورَنا.
السَّلامُ علَينا...
وألفُ سلامٍ،
يُزهرُ في أرواحِنا حين نَذبل.

يا رِفاقَ الرّوح...

أمَا علمتُم أنّ اللهَ يعلَم أوجاعَكم
التي لم تَبُحْ بها الشفاهُ،
ويعرفُ تلك الندوبَ التي غيَّرت ملامحَ قلوبِكم،
ويرى دموعَكم
وهي تختبئ خلف ستائر الكرامةِ وقوّةِ المظهر؟

اللهُ يسمع أنينَ أرواحِكم في سكونِ الليل،
حين تضعون رؤوسَكم على وسائدِ الخذلان،
وتغفو قلوبُكم على صمتِ الانكسار.

أريد أن أُذكِّركم...
اللهُ يعلَم، ويرى،
ويسمع كلَّ نداءٍ يتهامس في الظلام،
ويُصغي لأنفاسِكم المرتعشةِ حين تقولون: يا رب.

هوّن على قلبِك... فالوقتُ لا يملِك البقاءَ،
هوّن على قلبِك... فاللهُ رحيمٌ، وحاشاه أن ينسـاك،
وحاشاه أن يراك تأتيه ضعيفًا مكسورًا،
ولا يردَّك إلّا قويًّا، مطمئنًّا، مجبورَ الخاطر.

وأُحبّ أن أُهمِس في قلوبِكم:
كلُّ خسارةٍ قرَّبتْنا من الله،
واللهِ ما كانت إلّا بابًا إلى الربح،
ونورًا يقودُ إلى فوزٍ عظيم.

جرعةُ أمل..

أَعلَمُ ـ يارفيقَ الروح ـ
أنَّك مُنهَكٌ ممّا تعصفُ بهِ الأيّام،
وأنَّ أثقالَ التحمُّل
قد جاوَزَت قُدرتَكَ على النهوضِ مرّةً أُخرى.
أَعلَمُ ذاك الوَجعَ الذي يَسكنُ أغوارَ قلبِكَ،
وأَعلَمُ أنَّكَ كلَّ ليلةٍ تُناجي السَّقفَ صامتًا،
تُحدِّق في خيباتِكَ الماثلةِ أمامَ عينيكَ،
فتُؤرِّقُ نومَكَ، وتُثقِلُ أنفاسَكَ.

لَنا جَميعًا جانبٌ مُعتِم،
ولَنا قِصصٌ طَويلةٌ مع الألَم؛
مِنّا مَن تَجاوَزَها،
ومِنّا مَن لا يزالُ يَتجرَّعُ تفاصيلَها،
ومِنّا مَن استقرَّ أثرُها في أعماقِهِ نبضةً بعدَ نَبضة.

لكن...
ما لا تَعرِفُهُ أنتَ أنَّكَ أقوَى ممّا تظُن،
وأنَّ اللهَ لم يَضعكَ في هذا المَقام
إلّا لأنَّكَ أهلٌ له.

سَتَعبُرُ يا رفيق،
وإن بدا الطَّريقُ مُظلِمًا،
سَتَنجو وإن أوغَلَ الوجعُ فيكَ،
سَتَقومُ وإن خَذَلتكَ القُوى،

فما أَقسَمَ اللهُ عبثًا أنَّ "مَعَ العُسرِ يُسرًا".

يا لَجمالِ هذا الوعد،
ويا لعِظَمِ هذا الأمل...
فالفَرجُ أقرَبُ ممّا تَظُن،

والحياةُ كفيلةٌ أن تُزهِرَ فيكَ ما أَذبَلَتهُ الأيّام.
ستَغدو هذه المِحنةُ ذِكرى بعيدة،
ودرسًا عَميقًا،
يَروي لكَ أنَّ الليلَ مهما طالَ
لا يَملك أن يَحجُبَ شُروقَ الفَجر،
وأنَّ فجرَ الأملِ لا بُدَّ أن يُولَدَ في آخرِ كُلِّ وجَع.

عَلَى حَافَةِ الانْهِيارِ

المرحلة التيَ تَتَوَقَّفُ عندها كُلُّ ملذَّاتِ الحَيَاةِ،
كَأَنَّها دَقَائِقُ صَمْتٍ وعِزَاءٌ لكلِّ ما قدَّمْنَاهُ.
لَا يَصِلُ إِلَى هَذِهِ المَرْحَلَةِ
إِلَّا مَنْ عَرَفَ معنى التَّلاشي وَخَسَارَةَ الأحلامِ.
لَا بَأْسَ أَنْ نَمُرَّ بِهَذِهِ الحَافَةِ،
فَهِيَ طَبِيعِيَّةٌ جِدًّا، وَتُعَلِّمُنا الكثير.

لَكِنَّ السُّؤَالَ هُنَا
يَا رِفَاقُ:
وأَنْتُمْ عَلَى حَافَةِ الانْهِيارِ،
هَلْ كُنْتُمْ كَالْغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِقَشَّةٍ
ظَنًّا مِنْهَا أَنَّها سَبِيلُ نَجَاتِهِ؟
هَلْ مِنَ المَنْطِقِ أَنْ تُطفِئَ النَّارُ بِالبِنْزِينِ؟

هَكَذَا هُوَ حالُ كُلِّ مَنْ عَالَجَ خَطَأَهُ بِخَطَأٍ،
أَوْ هَرَبَ مِنْ مَشَاكِلِهِ ظَنًّا أَنَّهُ سَيَنْجُو،
أَوْ رَمَى نَفْسَهُ مِنْ حَافَةِ الانْهِيارِ،
تاركًا لها أن تَقَعَ فِي أَيِّ أَرْضٍ شَاءَتْ.
أَهَذَا هُوَ الحَلُّ؟

حَافَةُ الانْهِيارِ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ،
وَلَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَكِنْ،

إِنْ لَمْ تُعَلِّمْكَ هَذِهِ المَرْحَلَةُ أَنَّ

لَا خَلَاصَ مِنْهَا إِلَّا بِاللهِ،
وَلَا مُنْجِيَ لَكَ إِلَّا اللهُ،
وَلَا بَابَ سَيَظَلُّ مَفْتُوحًا سِوَى بَابِ اللهِ،
فَقَدْ ضَلَلْتَ.

إِنْ لَمْ تُقَوِّ ثِقَتَكَ وَتَلْجَأْ إِلَى اللهِ،
فَوَاللَّهِ، لَمْ تَكُنْ هَذِهِ مُجَرَّدَ حَافَةِ انْهِيارٍ،
بَلْ كَانَتْ نُقْطَةَ الهَلَاكِ.

المَلاذُ الآمِنُ...

جميعُنا يَحْتاجُ إلى مَلاذٍ آمِنٍ
يلوذُ إليه في لَحَظاتِ الفَزَعِ،
فمَن مِنّا لا يَبْحَثُ عن السَّنَدِ والأمانِ في هذِهِ الحَياةِ؟
ومَن مِنكُم – يا رِفاقُ –
لَمْ يَصْحُ يومًا على مَرارَةِ الخِذلانِ،
وانكِسارِ الثِّقَةِ، وَسُقوطِ الأحلامِ؟
أفنَحنُ مَن أَخْطَأْنا، أَمْ هُم مَن جَنَوا وأذْنَبوا؟

يا رِفاقُ،
إنَّ الأمانَ الحَقيقيَّ لا يُدْرَكُ
إلّا عِندَما يَكونُ اللهُ وَحدَهُ هُوَ المَلاذَ الآمِنَ.
أمّا الصَّديقُ والحَبيبُ، فستَظَلُّ تَكْسِرُكَ الخَيباتُ، وتُخْذِلُكَ الظُّنونُ، وتَخونُكَ القُلوبُ،
حتّى تُدرِكَ يَقينًا أنّ الأمانَ سِواهُ وَهْمٌ،
وأنَّه لا ثابِتَ في هذه الدُّنيا،
ولا أمانَ مُطْلَقًا في البَشَرِ.

تأمَّلوا جيّدًا – يا رِفاقُ –
واجعلوا اللهَ رَفيقَكُم،
ناجُوهُ بِلا تَكلُّفٍ في اللَّفظِ،
وَلا تَرتيبٍ للكَلِماتِ،
ولا تَصنُّعٍ في الدُّعاء.
اجعلوا اللهَ أمانَكُم، فمَن كان اللهُ أمانَهُ،
فما بعدَهُ أمان،

ومَن عَدِمَهُ فلا سَعادةَ ولا طُمأنينةَ.

وخِتامًا،
حين يَسقُطُ أَمَلُكُم الزّائفُ في البَشَر،
سَيُولَدُ أَمَلُكُم الحَقيقيُّ بربِّ البَشَرِ.

صَرْخَةٌ مِنْ قَلْبٍ تَتَقافَزُ فِيهِ الجَمْرَاتُ

وَاللهِ... لَقَدْ ضاقَ القَلْبُ بِما حَمَلَ،
فَما عادَ فِيهِ مَوْضِعٌ لِنَبْضَةٍ لا تَحْتَرِقُ.
أَيُّ مَهانَةٍ هذِهِ الَّتي نَقْبَلُها؟
أَيُّ خُنوعٍ وَخُضوعٍ وَاسْتِبْدادٍ
يَسْري فِي عُروقِنا صَمْتًا؟
كَمْ مِنَ العُمْرِ يَلْزَمُنا لِنَغْسِلَ وَصْمَةَ العارِ
الَّتي لَوَّثَتْ سُطُورَ تَارِيخِنا؟
وَأَيُّ إِنْجازٍ سَيُعِيدُ إِلَيْنا بَقايا الكَرامَةِ
الَّتي سُلِبَتْ وَنَحْنُ نَبْتَسِمُ بِمَرارَةٍ؟

ما هكَذا عَلَّمَنا دِينُنا،
لا وَرَبِّ السَّماءِ.
وَما هكَذا كانَتْ عُروبَتُنا...
يا أُمَّةً غابَ عَنْ لِسانِها النُّطْقُ بِالحَقِّ،
وَفارَقَتْ مَلامِحَها الغِيرَةُ وَالمُروءَةُ،
حَتّى جَفَّتْ دُموعُها قَبْلَ أَنْ تَنْهَمِرَ.

كَيفَ نُواصِلُ الحَياةَ
كَأَنَّ الدِّماءَ الَّتي تَسيلُ لَيْسَتْ دِماءَنا؟
أَفيقوا...
فِي غَزَّةَ أَطْفالٌ يَنامُونَ عَلى رائِحَةِ البارُودِ،
وَأُمَّهاتٌ يَحْتَضِنَّ أَشْلاءَ فُلْذاتِهِنَّ،
وَرِجالٌ يُوَدِّعُونَ بُيوتًا انْهارَتْ عَلى صَلَواتِهِمْ.
أَفيقوا بِحَقِّ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ...

أَيْنَ دَفاتِرُ ضَمائِرِكُمْ؟ أأَضاعَتْها الرِّياحُ؟
لِماذا صَمْتُكُمْ أَثْقَلُ مِنْ صَوْتِ القَصْفِ؟
لِماذا لا تَصْرُخُ أَقْلامُكُمْ،
وَلا تَدْمَعُ عُيُونُكُمْ، وَلا تَرْتَجِفُ قُلُوبُكُمْ؟

انْثُرُوا الخَبَرَ كَما تَنْثُرُ الرِّيحُ غُبارَ المَعَارِكِ،
قاطِعُوا كَما يُقاطِعُ الجَسَدُ السَّمَّ،
أَضِيئُوا الشّاشاتِ بِظِلالِ الحَقِيقَةِ
قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِعَها لَيْلُ التَّزْييفِ.
كَفاكُمْ لُهاثًا خَلْفَ تَفاهاتٍ يَلْمَعُ
بَريقُها ساعَةً ثُمَّ تَخْبُو،
وَفِي غَزَّةَ آخِرُ حُصُونِ عِزَّتِنا،
تَتَهاوَى جُدْرانُهُ فِي صَمْتٍ،
بَيْنَ أَنْيابِ أُمَمٍ تَنْهَشُ،
وَأَعْذارٍ كَالطِّينِ الرَّطْبِ تَتَفَتَّتُ عِنْدَ أَوَّلِ مَطَرٍ،
وَتَصْريحَاتٍ مُخْزِيَةٍ كَأَوْراقِ الخَرِيفِ اليابِسَةِ.

بِرَبِّكُمْ...
لا تَجْعَلُوا مَوْتَ أَهْلِنا فِي غَزَّةَ مُجَرَّدَ هامِشٍ ...
عابِرٍ فِي زَمَنِ الأَرْقامِ وَالأَخْبارِ السَّخِيفَةِ.
بِرَبِّكُمْ...
لا تُسَلِّمُوا أَرْواحَكُمْ لِبَلادَةٍ تُميتُ كُلَّ إِحْساسٍ،
وَانْفِلاتٍ يَقْتَلِعُ آخِرَ جُذُورِ الوَعْيِ.
أَفيقوا...
فَالأُمَّةُ الَّتي يَكْسُوها العارُ إِنْ لَمْ تَنْتَفِضْ،
دَفَنَها العارُ وَهِيَ واقِفَةٌ.

ما الذيّ سيحدَّث؟

مَا الَّذي سَيَحدُثُ، يَا رِفَاقَ الرُّوحِ،
لَو كُنَّا مَأوًى لَا مَصدَرَ خَوفٍ؟
لَو كُنَّا سَلَامًا لَا شَرَارَةَ حَربٍ؟
وَجَبرًا يَرمُمُ لَا كَسرًا يُبعثِرُ؟

مَا الَّذي سَيَحدُثُ لَو كُنَّا سَبَبًا لِلنَّجَاةِ لَا لِلهَلَاكِ،
وَلَو أَشعَلنَا فِي القُلُوبِ نُورًا لَا نَارًا؟
وَوَهَبنَا السَّعَادَةَ بَدلًا مِنَ الشَّقَاءِ؟

مَا الَّذي سَيَحدُثُ ؟؟
لَو عِشنَا صَرِيحِينَ وَاضِحِينَ،
لَا نُخفِي وُجُوهَنَا خَلف أَقنعَةٍ؟
لَو أَعطَينَا بِلَا طَلَبٍ، وَدَاوَينَا الجِرَاحَ بَدلًا مِن أَن نَزرَعَهَا مُنذُ البِدَايَةِ؟
لَو كُنَّا مَلَاذًا تُطمَئِنُهُ الأَروَاحُ،
لَا هُرُوبًا يَزِيدُ الوَهنَ؟
لَو كُنَّا رَبِيعًا يُزهِرُ كُلَّ مَا يَجِدُ،
لَا خَرِيفًا يُبعثِرُ مَا وُجِدَ؟

حِينَها لَن يَحدُثَ شَيءٌ، يَا رِفَاقُ،
سِوَى أَنَّ القُلُوبَ سَتَغتَسِلُ بِالهُدُوءِ،
وَسَيُصبِحُ السَّلَامُ لُغَتَهَا الأُولَى.
لَن يَبقَى مَن يَتَغَنَّى بِالحُزنِ،
وَلَا مَن يَسهَرُ اللَّيلَ شَاكِيًا،
وَلَا مَن يَحمِلُ كَسرَةَ ثِقَةٍ أَو جُرحَ رُوحٍ.

لَن يَحدُثَ شَيءٌ يَا رفاق،
سِوَى أَنَّ الخَيرَ سَيَطرُقُ كُلَّ بَابٍ،
وَلَن تُوجَدَ بَدَايَاتٌ لِلنِّهَايَةِ،
لِأَنَّنَا لَن نَصل إليها يَومًا.

طَمْئِنْ قَلبَكَ

حينَ لا تَجِدْ كَتِفًا يَحمِلُ وَجَعَك،
ولا كَفًّا تُمسِكُ دَمعَتَكَ قَبلَ سُقوطِها،
حينَ يَضيقُ الكَونُ بِكَ،
ويَغدو صَوتُكَ صامِتًا،
ورُوحُكَ غَريبَةً حتّى بَينَ الَّذينَ أَحبَبتَهُم...

حينَ تُحارِبُ أَوجاعَكَ في الخَفاء،
وتَبكِي حتّى يَذبُلَ القَلبُ،
وتَنزِفَ حتّى تَشعُرَ أَنَّ النُّورَ يَتَلاشَى مِن عَينَيك...

حينَ يَترُكُكَ الجَميع،
ويَهجُرُكَ مَن كُنتَ تَراهُم وَطَنًا،
ويَغدو صَمتُهُم خَنجَرًا،
وأَعذارُهُم رَمادًا بارِدًا على قَلبٍ مُشتَعِل...

عِندَها، أَيُّهَا المَوجوع،
قُل لِنَفسِكَ:
آنَ لي أَن أَنهَضَ بلا انتِظار،
أَن أَجمَعَ شَظاياي،
وأُعيدَ بِنائي كَما تُعيدُ الجِبالُ شَكلَها بَعدَ العاصِفَة.

امسَحْ دُموعَكَ بِيَدِكَ،
وامنَعْها مِنَ الانحِدار،
كُن حارِسَ نَفسِكَ، وصَديقَها الأَوَّل، وعاشِقَها الأَبَدِيّ.

أَحْبِبْ نَفسَكَ كَما لَم يُحِبَّكَ أَحَد،
وازرَعْ فِيكَ وَردًا لا يَذبُل،
وارفَعْ رَأسَكَ كَقِمَّةِ جَبَلٍ تُلامِسُ الغُيوم.

رَدِّدْ مَع قَلبِكَ:
"أَنا لَستُ هَشيمًا، أَنا نارٌ، أَنا صَخرٌ، أَنا لا أَنكَسِر."
دَلِّلْ رُوحَكَ بِالكَلِماتِ الجَمِيلَة،
واسقِها ماءَ الرِّضا،
وتَقَبَّلْ عُيوبَكَ كَأَنَّها مَلامِحُ قَدَرِكَ الجَمِيل.
تَذَكَّرْ أَنَّ الحَياةَ لا تَرحَمُ مَن يَنحَنِي أَمامَها،
فانهَضْ، واصرَعْ نَحوَ القَمَر،
ولا تَسمَحْ لِظِلِّ إنسانٍ أَن يَحجُبَ نُورَكَ.

ابتَسِمْ... ابتَسِمْ حتّى في وَجهِ الرِّيح،
واجعَلْ ابتِسامَتَكَ وَعدًا بِالنَّصر.
ضَمِّدْ جِراحَكَ بِفَخر،
وامشِ في دَربِكَ شامِخًا، لا تَلتَفِتْ لِلخَلف.

فَالطَّيِّبونَ دُرَرٌ خَبَّأَهُمُ اللهُ في قَلبِ الدُّنيا،
والخائِنونَ، لَهُم مَوعِدٌ مَع نارٍ تَأكُلُهُم كَما يَلتَهِمُ الجَمرُ الهَشيم.

وتَذَكَّر...
أَنتَ لَستَ صَدى ما قالَهُ الآخَرونَ عَنكَ،
ولا ظِلَّ ما فَعَلوهُ بِكَ،
أَنتَ قَصيدَتُكَ، وأَنتَ رَسَّامُكَ،
وأَنتَ مَن يَكتُبُ فُصولَكَ.

انهَضْ...
اتركْ خُطواتِكَ تَنقُشْ على الطَّريقِ حِكايتَكَ،
كَمَا يَكتُبُ البَحرُ على الرَّمل...
ثُمَّ يَمحُو، لِيَكتُبَ مِن جَديد.

رِحْلَةُ التَّعَافِي

فِي رِحْلَةِ التَّعَافِي،
يَخْرُجُ الإِنْسَانُ مِنْ عَتْمَةٍ طَالَتْ بِهِ،
وَمِنْ حِمْلٍ أَثْقَلَ كَاهِلَهُ حَتَّى كَادَ يَنْحَنِي ظَهْرُهُ.
هِيَ رِحْلَةٌ لَيْسَتْ مُزَيَّنَةً بِالأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ،
بَلْ مُثْقَلَةٌ بِالْجِرَاحِ وَالأَثَرِ.
رِحْلَةٌ تُشْبِهُ السَّيْرَ فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ،
تَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا نَسَمَاتُ أَمَلٍ خَجُولَةٍ،
كَأَنَّهَا بَرْقٌ بَعِيدٌ فِي أُفُقٍ مُظْلِمٍ.

سَتَعْرِفُ أَنَّ التَّعَافِي لَيْسَ خُطًّا مُسْتَقِيمًا،
بَلْ تَعَرُّجَاتٌ كَثِيرَةٌ،
تَسْقُطُ فِيهَا أَحْيَانًا ثُمَّ تَنْهَضُ،
تَتَقَدَّمُ خُطُوَاتٍ وَتَتَرَاجَعُ أُخْرَى،
وَلَكِنَّكَ فِي النِّهَايَةِ تَمْضِي قُدُمًا،
كَمَنْ يَشُقُّ الطَّرِيقَ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ حَتَّى يَبْلُغَ ضَوْءَ النِّهَايَةِ.

سَتَمُرُّ بِلَحَظَاتٍ مِنَ الضَّعْفِ،
تَشْعُرُ فِيهَا أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ الإِسْتِمْرَارَ،
وَلَحَظَاتٍ أُخْرَى يَتَسَلَّلُ فِيهَا الخَوْفُ كَأَنَّهُ لَصٌّ يَسْتَبِيحُ سَكِينَتَكَ.
وَسَتُجَابِهُ انْتِكَاسَاتٍ
تَتَخَطَّفُكَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ،
لَكِنَّ كُلَّ سُقُوطٍ يَحْمِلُ مَعَهُ دَرْسًا،
وَكُلَّ نَهْضَةٍ تُزْهِرُ فِي صَدْرِكَ قُوَّةً لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ أَنَّهَا مَخْزُونَةٌ فِيكَ.

تَذَكَّرْ دَائِمًا
أَنَّ رُوحَكَ أَغْلَى مَا تَمْلِكُ،
فَأَيْقِظْ دَاخِلَكَ بُذُورَ التَّحَدِّي وَالأَمَلِ،
وَاحْمِلْ مَعَكَ دَائِمًا شُعْلَةً صَغِيرَةً مِنَ النُّورِ،
فَلَوْ كَانَ بَاهِتًا،
فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَهْدِي خُطَاكَ فِي أَحْلَكِ اللَّيَالِي.

إِيَّاكَ أَنْ تَدَعَ ذَلِكَ النُّورَ يَنْطَفِئُ،
فَإِنَّ فِي انْطِفَائِهِ انْطِفَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فِيكَ.

وَفِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ،
سَتَرَى وُجُوهًا مُتَعَدِّدَةً:
ضُعَفَاءَ نُفُوسٍ،
وَخُبَثَاءَ نَوَايَا،
يَتَعَمَّدُونَ غَرْسَ سُمُومِهِمْ فِي قَلْبِكَ، بِكَلِمَاتٍ تَنْفُثُ ظُلْمَةً أَشَدَّ مِنْ لَيْلٍ بِلَا قَمَرٍ.
فَاهْجُرْهُمْ إِنِ اسْتَطَعْتَ،
وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ، فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ كَأَمْرَاضٍ تَسْتَحِقُّ الشَّفَقَةَ،
لَا كَأَعْدَاءٍ تَسْتَحِقُّ قِتَالًا.

لَا تُجْلِدْ ذَاتَكَ، فَأَنْتَ لَسْتَ سَيِّئًا،
بَلْ كُنْتَ أَنْقَى مِمَّا يَحْتَمِلُ هَذَا العَالَمُ المُمْتَلِئُ بِالتَّشَوُّهَاتِ.
لَا تَكْرَهْ نَفْسَكَ، بَلْ عَانِقْهَا،
وَتَذَكَّرْ أَنَّهَا وَحِيدَةٌ بَقِيَتْ مَعَكَ حِينَ تَخَلَّى عَنْكَ الْجَمِيعُ.
فَفِي صُحْبَتِهَا مَفَاتِيحُ نَهْضَتِكَ،
وَفِي رِضَاهَا مِفْتَاحُ حُرِّيَّتِكَ.

إنَّ أَعْظَمَ انْتِصَارٍ يُحَقِّقُهُ الإِنْسَانُ
لَيْسَ فِي هَزِيمَةِ أَعْدَائِهِ،
بَلْ فِي أَنْ يَسْتَعِيدَ نَفْسَهُ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَفْقِدَهَا.
وَمَا رِحْلَةُ التَّعَافِي إِلَّا عَوْدَةٌ بَهِيَّةٌ إِلَى ذَاتٍ كَادَتْ تَضِيعُ فِي زَحَامِ الأَوجَاعِ.

هِيَ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ،
يَخْرُجُ فِيهَا الإِنْسَانُ مِنْ رُحِمِ الأَلَمِ،
لِيَرَى الحَيَاةَ بِعَيْنَيْنِ أَكْثَرَ صَفَاءً،
وَقَلْبٍ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى الاِحْتِمَالِ.

أَيْقِظْ نَفْسَكَ بِالاسْتِمْرَار

لَا تَتَوَقَّفْ عِنْدَ عَثْرَةٍ صَغِيرَةٍ،
وَلَا تَدَعِ اليَأْسَ يَتَسَلَّلُ إِلَى رُوحِكَ.

تَذَكَّرْ مَرَّةً عِنْدَمَا شَعَرْتَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ضَاعَ،
وَأَنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلٌ جِدًّا...
رَغْمَ ذَلِكَ نَهَضْتَ.
كُنْ كَالنَّهْرِ الَّذِي يَشِقُّ صَخْرَهُ بِهُدُوءٍ،
رَغْمَ كُلِّ العراقيل،
كُنْ كَالنَّجْمِ الَّذِي يَلْمَعُ فِي أَحْلَكِ اللَّحَظَاتِ،
حَتَّى لَوْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ.

حَارِبْ مِنْ أَجْلِ أَحْلَامِكَ،
فَالأَحْلَامُ لَا تَأْتِي وَحْدَهَا،
عَلَيْكَ أَنْ تُكَافِحَ مِنْ أَجْلِهَا.
وَقَاتِلْ مِنْ أَجْلِ مَبَادِئِكَ،
فَالْمَبَادِئُ هِيَ مَا يُبْقِيكَ عَلَى قَدْرِكَ
وَيُعْطِيكَ صَلَابَةَ الْوُجُودِ.

يَا رِفَاقَ الرُّوحِ،
حَافِظُوا عَلَى شُعْلَةِ الاسْتِمْرَارِ مُتَّقِدَةٍ،
فَحَتَّى حِينَ تَعْتَقِدُ أَنَّ الطَّرِيقَ لَا يَنْتَهِي،
سَتَجِدُ أَنَّهُ كَانَ يُقُودُكَ خُطْوَةً خُطْوَةً نَحْوَ النُّورِ.

مَرْحَلَةٌ صَعْبَةٌ فِي حَيَاتِكَ

لَا تَعْنِي انْطِفَاءَ الْقِصَّةِ،
بَل قَدْ تَكُونُ هِيَ الْفَجْرُ الَّذِي
يَفْتَحُ أَبْوَابَ النُّورِ.
تَذَكَّرْ أَنَّ كُلَّ ثَمَرَةٍ تَحْتَاجُ
صَبْرًا وَدَفْءً لِتَنْضُرَ،
فَكُنْ أَنْتَ الدِّفْءَ الَّذِي يُنضِجُ بِهِ
قَلْبَكَ وَرُوحَكَ.

يَا رِفَاقَ،
مَنْ يَتَخَلَّى بَعْدَ مُحَاوَلَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ،
قَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ فَشِلَ،
لَكِنَّ مَنْ أَصَرَّ وَاسْتَمَرَّ،
سَتَشْهَدُ لَهُ الطَّرِيقُ أَنَّهُ كَانَ أَهْلًا لِلْوُصُولِ.

وَتَذَكَّرْ دَائِمًا:
أَنْتَ لَسْتَ رِحْلَةً مُكْتَمِلَةً بَعْدُ،
بَل مَخْطُوطَةٌ تَنْتَظِرُ قَلَمَ إِصْرَارِكَ لِيَكْتُبَ أَجْمَلَ فُصُولِهَا،
وَفِي كُلِّ لَحْظَةِ ضَعْفٍ يَخْتَبِرُكَ،
تَجِدُ فِي نَفْسِكَ قُوَّةً لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ.

ختـاماً يارفـاق..

إِنَّ أَجْمَلَ مَا قَدْ يُمْنَحُ لِلْإِنْسَانِ
فِي رِحْلَتِهِ القَصِيرَةِ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ،
أَنْ يُحَاطَ بِقُلُوبٍ صَافِيَةٍ،
وَنُفُوسٍ صَادِقَةٍ،
وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَلَاذًا آمِنًا وَذِكْرَى لَا تُمْحَى مِنَ الوِجْدَانِ.
وَلَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ،
أَنْ وَهَبَنِي عَائِلَةً هِيَ سِرُّ قُوَّتِي،
وَجُذُورِي الَّتِي أَسْتَنِدُ إِلَيْهَا كُلَّمَا
اشْتَدَّتِ العَوَاصِفُ.

لَمْ تَكُنْ عَائِلَتِي يَوْمًا مُجَرَّدَ بَيْتٍ يَجْمَعُنِي،
بَلْ كَانَتْ حِضْنًا مِنْ حُبٍّ وَأَمَانٍ،
وَمَلَاذًا مِنْ خَوْفٍ وَوَحْدَةٍ،
كَانَتْ دَائِمًا تَرَى فِيَّ مَا لَمْ أَرَهُ فِي نَفْسِي،
وَتَمْنَحُنِي الثِّقَةَ حِينَ كِدْتُ أَفْقِدُهَا.
فَالْحَمْدُ للهِ
عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ.

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِأَصْدِقَاءَ حَقِيقِيِّينَ،
صَدَقُوا القَوْلَ وَالفِعْلَ،
وَكَانُوا لِي سَنَدًا فِي أَوْقَاتِ ضَعْفِي،
وَرِفَاقًا فِي أَوْقَاتِ قُوَّتِي،
لَمْ يَرَوْا فِيَّ إِلَّا جَمَالَ مَا أَحْمِلُ،
وَكَانُوا السَّبَبَ فِي أَنْ تُزْهِرَ مَوَاهِبِي

وَتَخْرُجَ إِلَى نُورِ الحَيَاةِ.
كَمَا أَحْمَدُهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ أَحَبَّنِي
بِلَا مَصْلَحَةٍ وَلَا انْتِظَارٍ لِمُقَابِلٍ،
حُبًّا خَالِصًا لِلَّهِ،
كَانَ ضوءاً يُنير لي دربي.

إِلَى كُلِّ يَدٍ امْتَدَّتْ لِتَنْتَشِلَنِي مِنْ عَثْرَتِي،
وَإِلَى كُلِّ نَفْسٍ أَضَاءَتْ طَرِيقِي
فِي لَحْظَةِ عُتْمَةٍ،
وَإِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ صَادِقَةٍ أَعَادَتْنِي
إِلَى نَفْسِي حِينَ كِدْتُ أَضِيعُ...
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، أُهْدِي هَذَا الإِنْجَازَ،
وَأَرْفَعُ شُكْرِي المَمْزُوجَ بِالدُّعَاءِ لَكُمْ،
أَنْ يَرُدَّ اللهُ لَكُمْ جَمِيلَ عَطَائِكُمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

وَإِلَى القَارِئِ العَزِيزِ
الَّذِي رَافَقَنِي بَيْنَ هَذِهِ السُّطُورِ،
لَعَلَّكَ تَجِدُ هُنَا مَا يُخَفِّفُ حُزْنَكَ،
وَمَا يُذَكِّرُكَ بِأَنَّ النُّورَ لَا يَغِيبُ
مَهْمَا اشْتَدَّتِ العُتْمَةُ.
خِتَامًا يَا رِفَاقَ الرُّوحِ...
لَيْسَ السُّقُوطُ نِهَايَةً،
بَلْ قَدْ يَكُونُ أَصْدَقَ بَدَايَةٍ.
فَكُلُّ نُهُوضٍ بَعْدَ سُقُوطٍ،
هُوَ وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ لِرُوحٍ أَقْوَى،
وَقَلْبٍ أَنْقَى، وَإِرَادَةٍ أَصْلَبَ.
دُمْتُمْ بِخَيْرٍ وَنُورٍ لَا يَنْطَفِئُ.

بـــداية النهـــاية

بِدايَةُ النِّهايَةِ

لِكُلِّ مَن شَعَرَ أَنَّهُ بَلَغَ المَحَطَّةَ الأَخِيرَةَ فِي حَياتِهِ، واعتَقَدَ أَنَّ السُّتورَ قَد أُسدِلَت، يَأتي هَذا الكِتابُ لِيَهمِسَ فِي أُذنِهِ: لَستَ عِندَ النِّهايَة، بَل عِندَ عَتَبَةِ بِدايَةٍ أَكبَر.

هُنا، سَتَتَعلَّمُ أَنَّ السُّقوطَ لَيسَ خُسوفًا أَبَدِيًّا، بَل مَهبِطًا تَنهَضُ مِنهُ أَعتَى القُوَى.

وَأَنَّ كُلَّ نِهايَةٍ، مَهما بَدَت مُظلِمَةً، لَم تَكُن إِلّا مَمرًّا لِفَجرٍ أَبهى.

بِدايَةُ النِّهايَةِ... كِتابُ النُّهوضِ بَعدَ الانكِسار، وَالكلمات الَّتي تُعيدُ لِلرُّوحِ إِيمَانَها أَنَّ الغُروبَ لَيسَ سِوَى وَعدٍ بِشُروقٍ جَديد.